حياة متخيلة

أوفيد في المنفى



رواية

ترجمة

دار المدى

حياة متخيّلة

هذا النص ترجمة كاملة لكتاب :

AN
IMAGINARY
LIFE

A NOVEL BY
DAVID MALOUF

ديفيد معلوف : شاعر وروائي أستراليّ ، ولد في بريسبان بأستراليا . درّس في إنجلترا عشر سنوات قبل عودته إلى أستراليا حيث حاضر في جامعة سيدني حتى العام ١٩٧٨.

إقامته الآن موزعة، بين سيدني وإيطاليا. حصل ديفيد معلوف على جوائز أدبية عدّة، بينها جائزة باسكال في العام ١٩٨٨.

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

ديفيد معلوف

حياة متخيّلة

أوفيد في المنفى

رواية

ترجمة

سعدي يوسف

الناشر : دار المدى
تلفاكس ٦٩٥١٥. (٦-٩٦٢) ص.ب ١٨٣٧٦٤ عمان - الأرن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٠ / ٢ / ١٩٩٦)

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن في حكمه : ديفيد معلوف
ترجمة: سعدي يوسف
عنوان المصنف : حياة متخيلة (أو فيد في المنفى)
رؤوس الموضوعات : ١- القصة العربية المترجمة
رقم الإيداع : (١٩٠ / ٢ / ١٩٩٦)
الملاحظات : عمان ، دار المدى للثقافة والعلوم
* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

لوحة الغلاف للفنان الأسترالي أنيسلي روبرتس

إلى كريستوفر

ليس بمقدوري أن أقول متى رأيت الطفل أولَ مرة. أنا أرى نفسي – ربما كنت في الثالثة– أو الرابعة – ألعب تحت شجيرات الزيتون عند طرف مزرعتنا، على مقربة يسيرة من راعي الماعز، وأنا أتكلم مع الطفل، لا أستطيع القولَ، وأنا في هذا البعد، إن كان ذلك للمرة الأولى أم لا. راعي الماعز ينعس مستنداً إلى جذع زيتونة، وقد مال رأسه إلى الوراء، ليكشف خطّ فكّه الأسود وعصبَ رقبته القوية، والفم الأسود الفاغر. النحلَ يتنقل بين العشب. الهواء يتألق. يجب أن يكون الوقت صيفاً في أواخره. في العشب كانت شقائق نعمان تميل بها الريح. تيسٌ أسود كان منتصباً على قائمتيه الخلفيتين ليبلغ وُريقات الكرْم.

الطفل هناك. أنا في الثالثة أو الرابعة من عمري. الصيف في أواخره. إنه الربيع. أنا في السادسة. أنا في الثامنة. والطفل في السن ذاتها دائماً. أنا والطفل نتكلم، بلغة من صنعنا. شقيقي الذي يكبرني بعام، لا يراه، حتى حين يكون بيننا، جدّ قريب.

إنه ولدٌ متوحش.

لقد سمعت رعاة الماعز يتحدثون عن ولد متوحش، ولست أدري إن كانوا يعنون هذا أو آخر، وأنا، بالطبع لم أعترف لهم، أو لأي شخص . بأني أعرفه. الولد المتوحش الذي يتحدثون عنه يحيا بين الذئاب، في الوهاد إلى الشرق، وراء مزارع ودارات وادينا المرويّ جيداً.

الذئاب هناك حقاً. سمعت حكايات عن إغارتها على المراعي القصية، وأظنني سمعت مرةً أحد هذه الذئاب يعوي في الثلج.أو

ربما كان الطفل. وقد رأيت رأس ذئب جاء به أحد الصيادين ليعلقه في حظيرته تحذيراً. كان أغبر إلا أن مرآه لم يكن شديد الضراوة، بالرغم من انكماش اللحم الذي أبرز الفك ذا الأنياب. فكرت بالطفل، وكيف يجب أن يكون في طبيعة الذئاب شيءٌ رفيق يجمعها بنوعنا نحن البشر، وإلا كيف استطاع الطفل العيش بينها ؟ المخيف كان الطريقة التي قطع بها الرأس، وحبال الدم الأسود تلك المتدلية منه، والفرو عند الرقبة المسدّ بالدم. فيما بعد، سمعت ربما من رعاة الماعز ثانيةً، أن في طبعنا شيئاً من الذئاب، وأن في طبع الذئاب شيئاً منّا، إذ ما زال ثمت رجالٌ، يمكن أن يحوّلوا انفسهم، في منازل معينة من القمر، إلى ذئاب. إنهم يغلقون ذَهنهم البشري مثل قبضة، وحين يفتحونها ثانيةً تكون كفّاً ذات براثن ذئب. الجمجمة تنتأ، والفكّ يبرز ليكون خطْماً. الشعر يخشوشن على امتداد العمود الفقري، وينمو خشنَاً على البطن. والجسم يتهدل فيكون على أربع، والصوت يَغلُظ. إنه القمر يُسيرّهم . آمنتُ بهذه الأشياء أيّامَها، وتساءلتُ: أكان الطفل ولداً ذَئباً؟ أكان أولئك الرجالُ الذئابُ الذين يعيشون بيننا سراً، مغيرّين أنفسهم بألم، حسب أوامر القمر، أكان أولئك الرجال أطفالاً قُبضَ عليهم في اَلبراري، وجيء بهم بيننا، ليتكيفوا وطرائق الناس؟

بعد فترة، حين شرع جسدي يتغير، واكتشفتُ أولى علائم الرجولة فيّ، تركني الطفل. ولم يَعُد إلى الظهور، مع أني رأيته كثيراً في ما يرى النائم، تلك السنوات المبكرة، وظللت أحلم به مذّاك. نسيتُ اللغة التي إستعملناها، وأعتقد أننا لم يعد بمقدورنا

أن نتفاهـم لو ظهر ثانيـةً. أكانت عنـده رسالة لي آنذاك؟ لـو كان الأمر هكـذا فأعتقدُ أنـه فشل في إبلاغها. أو أنـه أبلغني الرسـالة لكنها انسلّتْ مـن ذهني. أو أن اللغة التي استعملَهـا، مهما كانت المناسبـة، قد تجاوزت فهمي، ولم تمكـن ترجمتُها في لغـة الكلام اليومـي. أعتقد (أظنني اعتقـدتُ دائماً) أنه سيعـود ، لكن في أي هيأة؟ هـل سيعود، كما كـان، طفلاً؟ أم رجـلاً في مثل سنّـي؟ أم ذئباً؟ أم أن لديه القدرة على اتخاذ هيئـات أخرى أيضاً؟ أتَراه عاد إليّ، فعلاً، في هيـأة هي مـن التواضع والعـاديّة بحيـث أخفقتُ في إدراك حضوره؟

أنا لا أخبر أحداً بهذا، فـأنا طوال كل تلك السنوات السـالفة كنت حريصاً على ألاّ أعترف لأحد بأنه كان هناك – حتى شقيقي الذي هو في مثل سني وكان بإمكانه أن يفهم. تحت شكوكي كلها، هذه البذرة من الإيمان.

1

وحشة هذا المكان هي التي تملأ ذهني، يوماً بعد يوم، بمنظوراتها. خطٌ من الجروف، منحرف إزاء السماء، والبحر رصاصيّ بعده. وإلى الغرب والجنوب، جبال، مكدسة تحت الغيم. إلى الشمال، وراء مصبّ النهر المنْقعِ، سهوب عشبية خاوية، تمتد إلى القطب.

لثمانية شهور في العام يتجمد العالم. وتهب أنفاسٌ لعنة قطبية على الأرض. الأرض تبيضٌ بين ليلة وضحاها. وحين يرتخي الثلج اخيراً، ويذوب، يُوحلُ السهل كله وينتن، وتغزونا الحشرات، والضباب الساخن ينفث بخاراً بين الأعشاب المتطاولة. لم أجد هنا شجرة ترتفع بين الشجيرات الرمادية البنية الخفيضة. لا زهرة. لا ثمرة. إننا في نهايات الأرض. حتى الأنواع العليا من الخضروات لم تبلغنا بعدُ، ونحن على مبعدة قرون من فكرة بستان أو حديقة للمتعة حسبُ. البلاد تمتد مفتوحة من كل جانب، مسورة إزاء الغرب والجنوب، مستوية إزاء الشمال، والشمال الشرقي، مع نظرة إلى اللانهاية.

الإنحراف الحاد للجروف يؤدي إلى السماء. بطائح النهر، شجْراء الإفسنتين، السهوب العشبية فيما بعد، كلها يؤدي إلى سماء معلقة، خفيضة، فوقنا، مثقلة بالثلج، أو خاوية على مدى ما تراه العين، أو يتخيله الذهن، سماء بلا غيوم، بلا أجنحة .

لكني أصفُ حالة ذهنية، لا مكاناً.

أنا، منفيٌ، هنا.

تتألف القرية المسماة " تومس " من مائة كوخ أقيمت بالأغصان المضفورة والطين، سقوفها قشٌ، وأرضيّاتها طينٌ مضروبٌ مغطّى بالأسل. في كل كوخ ساحةٌ مسورةٌ، وزريبة تأوي إليها الحيوانات، وتُربَط فيها شتاء. فوق الزريبة غرفة واحدة واسعة، ننام فيها ونأكل حين الشتاء، على مصاطب خشب تحتها طبقة من الخُثّ بطيء الاحتراق. في الصيف تُفتح بقية البيت، وتكون لي غرفة خاصة، ذات طاولة منخفضة للكتابة، وحَشيّة قش نظيف. حياتي هنا عُرِّيتْ إلى أبسط الشروط. أنا أعيش هَنَا مَع شيخ القرية المكلف بِمراقبتي، وربما بالإجهاز عليّ، حين يحلُّ الوقت. أهل البيت هم شيخ القرية، وأمُّه (عجوز في حوالي الثمانين)، وكنّتُه وطفلها. إنهم أناسٌ خشنون، طيبون، والشيخ مع أنه بربري، يعاملني باحترام ما، نظراً لمنصبي السابق. وقد أُهمَل، وأُترَك لشأني، أتجول في القرية، أو أتمشى في الحقول حتى المدى الآمن. وليست بهم حاجةٌ إلى أن يخشوا فراري. إذ ليس لي وجودٌ رسميّ، في كل العالم المعروف، حيث يحكم الإمبراطور. بعد هذا المخفر المتقدم الأخير: المجهول. حتى لو افترضتُ أن لديّ القوة على الفرار في وضعي الحاضر، فأين تراني سأذهب؟

أتمشى حول قلعة الطين الصغيرة، أو أتجوّل في الشّجْراء، لكني لا أمضي، البتة، أبعد من مرأى الأسوار، ففي كل وقت، يمكن أن تتعرض القرية لهجوم المتوحشين الذين يسكنون السهوب العشبية إلى الشمال، والذين يأتون في فترات منتظمة، مجموعات عاوية، ليسرقوا أنعامنا، أو يحرقوا الحقول القصبيّة. القرية كلها معسكرٌ مسلّح. وأنا المرء الأقلّ شأناً هنا- مخبولٌ، عجوز

مضحك، عجيب، مترقرق الدمع، لا يفهم شيئاً، ولا يستطيع أن يقول شيئاً، كما تبدو عاداته لهؤلاء الناس الصارمين، متنافية بصورة غير معقولة، مع حقائق حياتنا اليومية. إنهم يطعمونني، ويهيئون لي ركناً أنام فيه. هم ليسوا غير مهذبين. لكن لا أحد في "توميس" ينطق بلغتي، والآن، وبعد حوالي العام، لم أسمع كلمةً واحدة من لغتي، حتى أمسيتُ أبكم. إنني أتواصلُ، مثل طفل، بالغماغم والإشارات. أنا أشيرُ، أرفعُ حاجبَيّ مستفهماً، وتتفجر دموع فرحي لو أن أحداً – حتى لو كان طفلاً – يفهم ما أحاول قوله.

في الخلاء، أدأبُ على الصراخ، وأُحدّثُ نفسي، لأنني ببساطة، أريد أن أحتفظ بالكلمات في رأسي، أو أن أخرجَها منه؛ أيامي في هذا المكان، ولياليَّ، رهيبةٌ، يعجز عنها الوصف. النهار كلّه أشرد في حلم، معزولاً عن عالم البشر، كأني من طينة أخرى. في الليل، أكتشفُ وأنا نائمٌ، ما حجبه عني ضوء النهار البسيط: أن الجانب المظلم في كل شيءهنا، وأكثر من ذلك، المشهد نفسه حين تهبط عليه ظلال الليل، هو صفحةٌ واسعةٌ أعجزُ عن حلِّ لغتها، وعن ترجمة رسالتها إليّ. وحلماً بعد حلم، أغامرُ بعيداً، وراء الحقول الحصيدة، وعبر السهل الموحش الذي يتلوها، في الأراضي العشبية، خلف طرف عالمنا. الريح تهبُّ عليها، فتجيش مثل البحر، هسهسةً وأنيناً، والهواء مليء بأجنحة الهوام. أركعُ على ركبتيّ، وأشرع أحفر الأرض بأظافري الطويلة. أحياناً تأتي الذئاب، وتنبش بمخالبها الأرضَ إلى جانبي، وهي تعوي. نحن نحفر معاً، وهي لا تعيرني من انتباهها أكثر مما تعيره لشبح.

لكني أعرف أني سـأكتشف قبلها ما تبحـث عنه، مهما كان، وإلا ضعتُ. هكذا أحفر، أقوى، وأسرع. وضوء القمر يسقط دبقاً عليّ. أنا عاجزٌ عن أن أُسرّ لنفسي: هذا حلم.

أنـا أعـرف ما نبحـث عنـه. إنـه قبر الشـاعر أوفيـد – ببليـوس أوفيديوس نـاسو، رومانيّ من الفـرسان، شاعر. في هـذا المكان الموحش كله. لا أحد يعرف أين يثوي.

سُمّي ناسو بسبب الأنف.

أنـا أكلّمك، أيها القـاريء، باعتبـارك تعيش في قـرن آخر، فهـذه الرسـاَلة لـن أرسلها أبداً. إنها ليسـت موجهـة إلى زوجتي أو إلى محاميّ في روما، ولا حتى للإمبراطور، بـل هي موجهة إليك، أيها الصديـق المجهول، غير الموجـود في زمن كتـابتي هـذا، والذي لا أستطيـع أن أتخيل وجهـه، وحتى هيـأتـه. أبمقدور امـريء أن يتخيل وجـه إله؟ إذ يجب، أكيداً، وأنـت في بُعدك العظيـم عناً، أن تكون– الإلهُ الـذي شرع يحرّك أعماقي، ليستجمع كينونتـه منا، وسوف يستجمعها، في الطرفَ الآخر من العصر العظيم الذي هزّ عالمنا بزلازله، قد أفلح اخيراً، وبدأ يتكوّن.

أنا ألقي برسالتي إلى القرون، غير متأكد في أي مشهد من الأشياء غير المألـوفـة سوف تـرى النـور، وبـأي عينين ستقرأهـا. هـل اللاتينية لا تزال معروفه لديك؟ أنا أدفن الرسالة عميقاً في الجليد، في أحد القبـور التي ختـم على أحجارها الجليـدُ الذي لـن يذوب، وحيث لم يخاطر، البتة، واحدٌ من عالمنا الرومانيّ. فقط، بعد ألف

سنة، حين تكـون الإمبراطوريـة سقطت، ولم تعـد لديها سلطـة إخراسنا، سوف تصل هذه الرسالة سليمةً بين يديك. أنا الشاعر أوفيد– ولـدت على الطرف بين منـزلين من دائرة البروج، حيـث الأسماك تسحبـه في اتجاهاتها المعـاكسة، ليهبـط أسفل الأفـق، والكبش يصعد، بين عصرين، الأعوامِ الألـف للآلهة القدامى التي ترتعـد لنهايته، والعهد الجديـد الذيَ سيصلَ إلى أزمتـه في نقطة بعيدة مـن المستقبل أعجزُ عـن إدراكها، وحيث تجلـس أنت، أيها القاريء، في غـرفة مضـاءة لا أميّزُ أثاثهـا، او في الضوء المتـأخر لبستان اجهل ازهاره، لتترجم هذَه الـرسالة – وبأي صعوبة؟ – إلى لغتكً.

أسمعت باسمي؟ أوفيد؟ أما زلتُ معـروفاً؟ هل أفلت أحد سطور كتابتي من منع كتبي في المكتبات، ومن إحراقها في الساحة العامة، ومن نفيي عن اللغة اللاتينية؟

هل خبّـأَ معجبٌ سريٌّ إحدى قصـائدي فأحتفـظَ بها، أو حفظَها غيباً؟ أما زالت أبياتي تنتقل سراً، في مكـان ما، من فم إلى فم؟ هل انسـلّ أحـــد تعابيري، بدون انتباه السلطات، مقتطفاً في قصيدة شاعر آخر، أو في رسـالة؟ أو في قولٍ سائرٍ لا يمكن ان يمحى الآن؟

هل بقيتُ حيّاً؟

أكتب هـذا، في ضوء شمعة. هـذه الغرفةُ التـي بلا نافـذة، مظلمة كالليــــــل. عناكب صغـيرة وحشـرات أخرى تعيش في سقف القش، وتـزحف على الأرضيـة، وتسقط في شَعـرك، أو في صحن

حسائك وأنت تأكـل، وثنايا ثيابك تعجُّ بها. أنــت تعتاد هذا الأمر بعد فترة.

لم تكن لي، البتة، صلـةٌ بالمخلوقات قبل هــذه، حتى ولا الكلاب أو القطط. الآن أجد فيها شيئاً غريبــاً قابلاً للعلاقة. فهي، مثلي، غير قادرة على الكلام. إنها تتحرك بين الشقــوق، في فجوات حيواتنا، وهي غير ضارّة. حتى العناكب، هذه المخلوقات البائسة. أتساءل إن كانت لديها لغة خاصة، كــي أحاول أن أتعلمها. إنه لأمرٌ سهلٌ مثل اتقان اللغة البربرية الحلْقية التي ينطق بها جيراني.

بــدأت أتبينُّ بعض الأصــوات في هذه اللغــة. لكن مجرد سماعــي الشيـــخَ يصيح في الساحة بحفيده، أو يتمتم في الأصيل للمرأة الشابة، يكاد يجعلني أُجَنُّ، أحياناً. الأمر مثل محاولتك تذكُّرَ شيء نسيتَه، يتّقد على حدّ ذهنك، لكنه يـرفض أن يكشف نفسه. أشعرُ أنني مقطـوع كواحَد من هــذه العناكب، أو مثل فــأر يترجّح على عارضة سقف وهو يسمع الشاعـر يقرأ. لكأنني زلقتُ خطوةً إلى الوراء في نظام الأشياء، أو أنني مُسخــتُ، بلعنة ساحرة، إلى نوع أدنى. بالطبع، لا ساحرة فعلـت بي هذا. كل ماَ أستُثير هُو سلطةً القانون. لقـد أُبعدْتُ، بفعل أعلى سلطة معروفــة، لأكون، حقاً، في نظام آخر لكائنات، أولئك الذين لم يصعدوا، عبر ثقب في رأسهم، ليكوّنوا بشراً مكتملين، أولئـك الذين لم يلجوا، بعــدُ، في ما نسميه مجتمعاً، فيصبحوا رومانيين تحت القانون.

لكنهم، حتى هكذا، من نوعنــا، هؤلاء الجيتيين. أنصتْ اليهم وهم يتكلمــون. الأصوات بــربــريــة، وتحنُّ روحي لصفــاءات لغتنــا

اللاتينية، تلـك اللغة الكاملة، التي يمكـن أن يعبرّ بها عن الأشياء كلهـا، حتـى عن المنفـى. أنـا أنصـتُ، ويهزُّني أكثر أنني أميّـزُ النغمات. أعرف أن هذا النغم رقّةٌ، وهـذا أسفٌ، وهذا غضب. هذا نغم شيخ يهديء طفلاً يعثر، يبكي، يحكي عن أوجاعه، ويجب أن يؤخـذ بيده عـائداً، كي يسمي الحجـرَ الأسماءَ التي قـد يتعرف عليها المرء في طفولته الأبعد: " الشرير، أيها الحجر الشرير! "

أمـا الآن، فثمت العنـاكـب. أبمقـدوري أن أُدوزن أذنيّ لكلامهـا أيضاً؟ مـا دامت هـي كذلك يجب أن تتـواصل. ربما أبـدأ، أكتبُ ثانيةً، بلغة العنـاكب. " مَسْخُ الكائنات الجديد للشـاعر أوفيد في منفاه، بلغة العناكب " .

أحياناً، وأنا أتجول على غير هدى، أتـوقفُ لأراقب النسوة يعملن في ساحة الدار،يفرزن الحبوب ويطحنّها. إحداهن تصعد نظرها، وتعبس، أو تبتسم، من عالم ما، خـاصّ بها، أعجزُ عن لمسه. ثمت بذور عـدّة: ذهبية، صفـراءً مخضرّة، زُرقاء. أحـزرُ ما يمكـن أن يكـون بعضها، لكنـي لا أستعيد أسماءهـا. أنا أعـرف، بالطبـع، أسماء البذور، لكوني استخدمتُهـا في قصائدي لجمالية الصوت نفسه: كزبرة. هـال. لكن ليس لديّ فكرة عن أشكـالها، باستثناء المعـروف الشائع منهـا. مـرةً أو مـرتين، أخذت إحـدى البـذور بسبّابتي، ووضعتُهـا في راحتي، بينما كانت النسـوة المندهشات ينظرن إليّ. وحـدث مرةً، أن ضحكت صُغـراهنّ ونطقـت بكلمة: كـورشكـا. نظـرتُ إلى البـذرة، وأومـأتْ برأسـها، كأنني طفل، وقالت ثانيةً وهي تدّور شفتيها بصورة مبالغة، كور- شكا!، ثم وضعتْ إحدى البذورَ على لسانها، وقضمتْها. فعلتُ الشيء نفسه،

لكنـي لم أميّـز الطعـم. وحـدهـا، وبـدون المائة مـن الأعشـاب والأفاويـه الّتي يمكـن أن تدخل معهـا في مطبخنا الـروماني، لم تأتني البذرة بـالصدمة التي تجعل ذائقتي تميّـزها، ولم تفلح في أن تجيء باسم لها في ذهنـي. هكذا أعرف كلمةَ هـذه البذرة الآن، وطعمها، وشكلَها، ولونها، لكني لا أستطيع أن أترجمها عائداً بها إلى تجربتي الخاصة.

أسيكون كل شـيء هكذا، منذ الآن؟ أعليّ أن أتعلم كـل شـيء، من جـديد، مثـل طفل؟ أكتشـف العـالم كما يفعل طفـلٌ صغير، عبر الحواسّ، لكـن مع حـرمـان الأشيـاء كلها مـن السحـر الخاص لأسمائها في لغتي؟

ليـس بالإمكـان قولُ شيء عن قريتنـا سوى أن فيها نحـو مائة كوخ . الأزقـة الضيقة بين هـذه الأكواخ، طينيـة. خنازيـر قليلة تتمرغ فيها، أو بضـع وزّات، والطين مكوّنٌ من جزء واحد تراب، والأجزاء التسعة الباقية هي نفاياتٌ موطوءة لهذه المخلوقاتٌ، منـذ ألف جيـل. أطفال عـراة يخرجـون من بيـوتهم بعد المطـر ليجلسوا في بُـرَك مع الـوزّ، أو ليطاردوا الخنـازير بين البيـوت، صارخين، حتى أن أذنيّ لا تميزان صراخهم عن قباع الخنازير. وراء جـدران الحاجز الـدفاعـي، قطعٌ قليلـة مزروعـة حبوبـاً، والنسوة يجمعن الحبوب ويَدْققنهـا، وبين السيقان تنمو أعشاب ونباتـات أخرى يجب أن تفرز بـاليد، مـن قمح، وشوفـان بري وشعير. وليس لديهم شكلٌ للزراعة آخر.

الآن، منتصف الصيف. بطـائح النهر ترسل أبخـرتها، مع طنين

الذبـاب. لكن، بعـد أسابيـع قليلة ستـأتينا أوائل الشتـاء. رياحِ الشمال تهبّ عبر النهر، مـن السهوب السيثيـة، تبسط القصـبَ، وتسـوط الماءَ. الرجـال، من الآن في الخارج، يقطعـون كتلاً مـن الـخُثّ سوف يكدّسـونها أكداساً يتّقون بها البرد. النسـاء يملأن الأهراء بالحبوبَ ولحم الخنزير المدخن الذي يعلقنه من عوارض السقف. مـا أن يتجمد النهر حتـى يكون علينا أن نظـل متأهبين خلف الحاجـز الدفـاعي، ليـل نهار. وليل نهار يظـل الرجـال في الحراسة. النهر، حامينا اليوم. لكنـه بعد شهرين من الآن سوف يكون جسراً جليـدياً، ولسوف تنـدفع القبـائل من الشمال عبره، ناهبـةً، مغتصبة، مشعلة النيران. إن أنـاسي هنا، هم متـوحشون نسبياً. أما البرَابرة الحقيقيون فعليّ أن أراهـم فيما بعد.لقد حلمت بهم فقط.

في إحدى الليالي حلمت مؤخراً، بأنني مشيت تحت ضوء القمر، في الطريق بين الأكـواخ، أسمع الخنانيص يقبعـون خلفي، وأسمع غناء عظامهم المصوصة، حتى بلغت ضوء المستنقعات الغريب. كان القمر يعتلي القصب، وقد نصّف وجهَـهُ خطٌ من الغيوم مثل عين مغمضــة – عيني، نصـف مستيقظـة، ومفتـوحة مثـل عين البوم، نصف مغمضة في العتمة.

سرت على النهر، الذي دوّم مثل الدخـان تحتي، وكنتُ ضوءَ قمر. بلغـت الضفة الأخـرى. سهلٌ واسـعٌ يمتد بعيـداً، منبسطاً، بـلا ملامح، كـل شيء كان غباراً يدوّم تحتي، ومـن الغبار لم يتحرك مخلوق، حتى ولا أفعى. كان المشَهد أصلياً.

وفجأةً، ليـس من غبـار السهل، ولكـن من السماء المدوِّمـة، جاء

حشدٌ من الأشكال، يندفع، مـرعداً، نحوي – رجال، نعم، خيول، نعم، وفكـرت في ما لا أومـنُ به، وأعرف أنـه يعود فقـط إلى عالم خرافـاتنا، حيـث وجدت نفسي: القناطير. لكـن هؤلاء لم يكـونوا المخلوقات المروّضة لأسـاطيرنا الرعوية. كانوا ضخـاماً، وكانت رهيبة أنفـاسُ منا خيرهم، ووقع حـوافرهم وضوء خـواصرهم المتموج. عرفت أن هؤلاء، كانوا آلهة. وبهم أيضاً، لا أومن.

وقفـت صامتـاً وسط السـهـل، وبـدأوا يدورون حـولي في دوائر ضخمة، مطلقين لا صرخات خبث، كما ظننت، بل صرخات رثاء. وكأنهم يقـولون لي. " أدخلَـونا فيَّ عالمكـم. دعونـا نعبر النهر إلى إمبراطوريتكم. إقبلونا في حيواتكم. آمنوا بنا. آمنوا " .

وبطيئاً توقفّوا.

توقفوا.

يتنفسون.

وحلّ صمتٌ، وسيـع كالسـهل، وسمعتُ دقّات قلبـي، مثل أخفت صدىً لحوافرهـم، وأنفاسي مثل أنفاسهـم، تمزّق صدري. أحدَ هذه المخلوقات، ومـن قوى الظلال التي أغلقت الأفق كلـه فوقي، تقدّم بطيئاً إليّ، واضعـاً حوافره، بلطف، في التراب، وتـوقّفَ على مبعدة قدم مني، بحيث أحسستُ بـأنفاسه، ودفئه، وحسبتُ أني سمعتُ في دفـق أنفاســه صوتاً ذا مقـاطع أقـدرُ على تفسيرها . ثانيـةً، كان النغـم ما تعرفـتُ عليه. وشرعـتُ، كأني بـلا لغة لي، أنصتُ إلى معنى آخر.

مددتُ يدي، ولمستُه.

وانبثق شيء من أعماق رقــادي، إلى حد أننا وقفنا، الواحـد يواجه الآخـــــر، مثل انعكاس يصعد إلى سطح المرآة. إنه هناك، غريبٌ، خارج عني. ومن داخلي، خرج شيء كان انعكاسَه، كي يلقاه.

أفقتُ، صرخت. والكلمة التي أطلقتُها لم تكن من لغتي.

حاولـت، مُذّاك أن أتـذكر تلـك الكلمة، لكـن الصوت كـان غار في رقــادي. لو استطعـتُ أن أتذكـر ذلك الصـوت ثانيـة، فأظننـي سأعرف ما كنــت سمّيته، ما الذي واجهتُه. وما ذلـك الذي هناك، ينتظر أن يستقبلني.

لُقِّبتُ " ناسو " بسبب الأنف.

لست أدري ما الذي كان يفعل جَدّي بأنفه . أمّا أنا، فقد كان أنفي للأخبار – أخبار المجتمع، الأخبارَ التي تنتشر.

أنا في الأساس مخلوق اجتماعي. بعض الشعراء، فرجيل مثلاً، له أذن، ممتازة في كل شيء. أنــا، لديّ أنف. والأنوف سيـاسة ، حتى لو وضعتَها في أكثر الأماكن خصوصيةً. قد تكون أكثر سياسيةً آنذاك. الأنوف تسبب لك المتاعب. بـإمكاني أن أشمّ جيداً ما يريد كل واحد أن يسمعه، ويبدأ يفكـر في ما سمع، ويستمر في التفكير أيضاً،بمجّرد أن أقوله.

كنا في ســلام، بعد قـرن من الحرب التي دمّـرت فيها أُسرٌ كـاملةٌ أسراً أخرى، بـاسم الـوطنية. وأنا دخلـتُ بالضبـط، في عصر من " اللخبطة " المتسامحة، والصفاقة الماهـرة، حين بدا، أننا جمّيعاً،

قد تحررنـا أخيراً من أغلالنـا لندخل في تنـوير كان مـن العظمة بحيث لم تعد، ثمتَ، أي حاجة للإيمان.

ومن الكون كانت أخبـاري تقول: "الآلهة لم تمُت تماماً، ما دامت أسماؤها على شفاهنـا كلها – دع عنك النصب المكـرّسة لها التي قدّمهـا يومياً زعيمُنـا المحبوب. لكـن الآلهة أيضاً توقفـت عن أن تكون جادّة، ودخلـتْ عصر اللعب. وقد هجرت الأماكـن المقدسة وسكنت الخرافـات التي لا تستلزم سـوى انفصالنـا المسليّ عن الكفـر. ولسوف تتضـايـق من أي شيء كئيب، أو فاقد الفكاهة، مثل تقوى أجدادنا. أخيراً، صرنا أحراراً في أن نؤمن بأنفسنا. وما دامت القواعد غير قـائمة، فعلينا أن نوجدها، حتـى لو كانت غير سليمة!.. " . وهكذا دواليك.

كنت أكتشف لجيلي أسلـوباً وطنياً جديداً. لا مزيـد من الفضـائل المدنية، ما دمنا نعرف جميعاً إلى أيـن تؤدي. لا وطنية بعد اليوم. لا تمجيد للـرجال الذين يحملـون السلاح. لا شعر تعليميـاً بعد اليـوم. لا جرعـات ماشيـة، ولا حب الـرعاة الصبيـان ذا المذاق الإغـريقـي . كان عـالمي شـخصيـاً تمامـاً، دليلاً بصيـغٍ جيـدة واضحة، إلى شؤون البلاد، بحيث تمكـن معرفة هذه الشؤون في المترين المربعين للفراش.

وقد خلق الإمبراطور عصره. وهوُ يـدعى الأوغسطيني، كما أعلن مؤرخـونا بالفعل، وقـد ثبّتوا عيونهم، بشـدّة، على الحاضر. إنه عصر وقورٌ، منظّم، متباه، كئيب. إنه قائمٌ في قصائد المديح (التي رفضتُ الإسهام فيها)، وَفي الرخام الذي سيخلد إلى الأبد.

أنا أيضاً خلقتُ عصراً، مشتركاً مع عصره، وهو قائم في حيوات وحب محكوميه. إنه عصر مرحٌ، فوضوي، سريعٌ، وهو متعة. ولهذا السبب يكرهني الإمبراطور.

الإمبراطور أوغسطس سوف ينتصر في المدى القصير. والآن المدى القصير. فلقد أُبعدتُ – هذا هو تعبيرنا اللطيف – إلى نهايات العالم المعروف، وطُردت من كنف لغتنا اللاتينية.

لكن، في ظل بوّابة أهدتها أختُه إلى زوجها المخلص، يُفعَل بأحدهم الليلة ، لأني جعلت هذا يحدث في إحدى قصائدي، يحدث ذلك الفعلُ نفسه، في المكان نفسه، إشارةً إلى تحدي الجمهور. الآن، في كل ليلة، يفكر أوغسطس بالأمر، ويعضّ إبهامه. ثمت أماكن أقرب من البحر الأسود تتوقف عندها سلطة الإمبراطور. وبوابة كارسيللوس من هذه الأماكن.

لكني هنا، وكل هذا، كله، خلّفتُه ورائي بعيداً.

كم تبدو الآن، سخريتي، حمقاء، وعقوقاتي، ورقصي على الحبل المشدود فوق الهاوية. لقد تشممتُ طريقي إلى الطرف الأقصى للأشياء، حيث لا شيء يبدأ. ذلك ما أوصلك إليه أنفك. أنا أتشمم، أتشمم، ولا أخبار من هناك، لا أخبار من هنا. إنني ميت. أنا مبعدٌ إلى إقليم الصمت.

كل ما أستطيعه أن أصرخ. وهذا ما أفعله.

أنا أمشي جيئة وذهاباً، على خط الضفة الصخري تحت الجروف، التي يقسم ظلها الحصباء إلى أجزاء متميزة من النور والعتمة. أنا

أمشي بين الصيادين، صـائحاً- أراقبهم يرفعون باندهاشاتهم المتألقة، من البحر، صيدهـم الذي لا أعرف له إسماً. أو أتمشى في الشجـراء على قمم الجروف، ألـوّح بذراعـيّ ضد البرد وأراقـب العواصـف تندفـع من لا مكان، أَو شـلالات عظمى مـن الشوك ترحل بيضاً على الريح، فأطلق صيحاتي.

الطريق إلى رومـا بعيد. وإن كانوا سيسمعـونني، فعليّ أن أرفع صـوتي، وأترك سيـول الهواء الأسود هـذه المتجهـة غربـاً عبر السهول، تحملني معها. لقد جعلوني أصمتُ. لكني لن اهدأ.

كيف بمقدوري أن أقدم لك أي انطبـاعة – أنت الذي لا تعرف إلا المشاهد المشكّلة منذ قرون مـن أجل الفكرة التي تحملها أرواحنا جميعاً عـن المنظر المثـالي الذي يجب أن تتـمّ عليه حيـاتنا – عمّا كانـت عليه الأرض في عمائهـا الأول، قبل أن نـأتي إليها بنظـام الصناعة، والمصاطب الـزراعية، والحقول، والبساتين، والمراعي، والحدائق المروية لعالمٍ نصنعه على صورتنا؟

أتفكر بإيطـاليا – أو أي ارض تسكنها الآن- باعتبارهـا هبة من الآلهة، جاهزة، بكل جمالها الرائق؟ إنها ليسـت كذلك . إنها مكان مبتكَر. إن كان آلهة معك هناك، متوهجين مـن شجرة بمرعىً ما، أو محرّكين روحهم على حصى جدولٍ في نـور الشمس، في الآبار، في الينابِيع، في صخرة هي علامةُ حـقّ امتلاكك سفحَ تل، إن كان الآلهة هناك، فـلأنك أنـت اكتشفتهم هَنـاك، سحبتهم مـِن داخل حاجتـك الروحية إليهم، وحلمـت بهم في المشهد كي يتـألق. إنهم معـك بالتـأكيد. عـانق شجـرةً، وأحـسّ بالـروح تصبّ فيـك،

وأستشعرْ دفء الصخرة يدخل في جسدك، إغمر نفسك في النبع كما لو أن في مكـان سائل مـن جسدك تنـام حياةٌ. لكـن علينا أن نعترف بالأرواح كَي تغدوَ حقيقية..

إنها ليست خـارجنا، ولا حتى داخلنـا تماماً. إنها تـروح وتغدو بيننا وبين الأشـياء التي صنعناهـا، والمشـهـد الـذي شكّلنـاه، وتدخـل. لقد حلمنـا بكل هـذه الأشياء في أعماقَ حيـاتنا، وهـي ذواتنا. إنها ذاتنا التي نصنعها هناك، وحين يكتمل المشـهد نكون نحن الآلهة المؤهلين لملئه.

لكأن أي مخلوق قـادرٌ على أن يحلم بنفسه، خارجـاً من وجود جديـد، درجةً أعلى في سلّـم الأشياء. وبما أننـا وعينا في نـومنا، فكرة كينـونة أخـرى، فإن أجسادنـا لتجد، ببـطء، وألم، المسار الطبيعـي الذّي سيسمـح لها بكسر اغلالها، والـوَثوبَ إلى تلـك الكينونـة. هكذا فالصخرة النـائمة فـي الشمـس، كانـَت يومـاً مـا نـاراً ذائبة وصـارت صخرة حين استطاعت النار أن تقول، بصورتها السائلـة: " سأتصلّب. سأكـون صخرة "، والصخرة تحلم الآن بأن عـروق المعدن داخلها قد تعود سـائلةً، وتتحرك، لكن ضمن شكلها كصخرة، هكذا وببطء، وعبر قرون طويلة من التشوف لمثل هـذا الظرف، للنعومة، للنبض، تشعـر أحد الأيام، بأن التحـول بدأ يحدث، العـروق ترتخي وتفيـض، والصلصال يلين، وتكتشف الصخرة عبر عصور طويلة من تخيل حياة أخرى، عيوناً، وفماً، وأرجلاً تثب بها، وإذا بـالعلجوم. والعلجومً بدوره، يعي، وقـد صار قادراً على السعي في الأرض، إمكـانَ التحليق في الهواء، ويحلم بنفسه محلّقـاً، ذا جناحين، وهو لا يزال علجـوماً.

أجسـادنـا ليسـت نهائية. نحـن نتحـرك، جميعـاً، في بشريتنـا المشـتركـة، وعبر الأشكال التـي نحبها أكثـر فيما بيننـا، نحو مـا لمسته أيدينا، ونحن نفعل الحب، وما تـوترت له أجسادنا في عتمة الآخر. ببطء ، وعبر القـرون، يتقدم كل واحد منّا، بقـدر متناهـي الصغر، نحـو إنسان نهائي، كنـا أعددنا المنظّـر لرضـاه، إنسانٍ نهائي لا يمكن إلا أن يكون إلهاً.

لقد رأيـت نهاية هذا كلـه، بوضـوح، في مخيلتي: الأرض تتجلى، والآلهة يمشون عليهـا في ضوء أجسـادهم. ولقـد رأيت الأرض، كما رأيتَها أيها القارىء- مهيـأةً لهذا منذ الآن، ما دامت عقـولنا تعي، وأيدينا تصـوغ، ما لم نتهيأ بعدُ لدخولـه: حقول ذرة بعلوّ قـامة، منتصبـة السيقـان تحت الشمـس، متمايلة تحت القمـر. غيـاض زيتون تتغير مـن الأخضـر إلـى الفضـي ، كـأن إلهاً قـال: " فضة " ، ومـرّت أنفاسـه في المنظـر لتحوّلـه مع التفـاف الأوراق . أنـت تعـرف هـذا كلـه. إنها الأرض كما صنعنـاهـا، نمهدها، وننقّيها، ونزدرعها ناقلين البذور من مكان إلى آخر ، غير متبعين خطـةً معلنة، لكـن تـاركين لمعـاداتنا أن تهدينـا السبيـل ولجوع آخـر أعمق، حتـى يكشـف لنَـا المنظرُ الـذي صنعنـاه، المخلوقات التي نتشوف إليها، والتي يجب أن تكون.

أنا أعرف إلى أي مدى بعيد وصلنا، لأنني كنت عائداً إلى البدايات. لقد رأيت الأرض غير المغيّرة. إنها منبسطة، بـلا ملامح، مستنقع في الصيف، ومتاهٌ متجمـد في الشتاء، بلا شجرة، بـلا زهرة، ولا حقل ممهّـد. الحبوب البريـة فقط تنمو معـاً في كتل مـريضة، أو تتطاير متناثرة مع النسيم. إنها موضع الوحشة المطلقة. البداية.

أنا أعرفها كما أعرف ما بداخل رأسي. لن تستطيع أن تكوّن فكرة عن المدى البعيد الذي بلغناه، وعن العودة البعيدة التي كَنت فيها كي أرى هذا كله. كم كانت حياتنا متخلفة في بداياتها.

ومع هذا، فإن اختلاجات حياة جديدة تتحرك حتى هنا. البذور الأولى تُعزل وتنقّى، وتأخذ طريقها الطويل إلى الكمال.

اليوم، كنت أتمشى، محتذياً نعليّ العتيقين، مرتدياً قبائي، معتمراً قبعة قش اتّقاء الشمس، متعثراً، أكلّم نفسي في الخراب الموحل، نحو النهر، ولقد تسمّرت قدماي لانتفَاخة صغيرة من القرمز بين الذرة البرية.

قرمز!

إنه أول لون أراه منذ شهور. أو هكذا يبدو. قرمز. كانت زهرة خشخاش بري، ذات حمرة جد مفاجئة. بحيث جعلت دمي يتوقف. ظللت أردد، لنفسي. الكلمة، مرّات ومرات، قرمز، كما لو ان الكلمة، شأنها شأن اللون، قد أفلتت مني، وأن مجرد نطقي بها سيحفظ الزهرة الصغيرة التي تهزها الريح، في مرآي. زهرة خشخاش. سحرُ نطقي الكلمة جعل جلدي يقشعرٌ، كأن القول معجزةٌ أعظم من البصر. سكرت بالفرح. رقصت. صرخت. تخيلْ دهشة اصدقائي في روما وهم يرون شاعر العاصمة الهجّاء، الذي لا يكاد يعرف زهرة، أو شجرة، يرقص ويدور بنعلين متقطعين على الأرض المفخورة المتشققة في مواضع، والغارقة في الوحل المنتن في مواضع– أن يروه يرقص ويغني لنفسه، محتفلاً بهذه الزهرة.

يــا زهرة الخشـخــاش، يا زهــرة الخشـخــاش القرمــز، يا زهــرة طفولتي البعيدة، وحقول الذرة حــول مزرعتنا في "سالمو" ، لقد أعدتُك ثــانية إلى الوجود، وبعثتُك من دمــي، لأجعلك تتمايلين مع الريح. قرمز. الكلمة السحــرية علَى اللسان، لتبرق ثانيةً في العين. قرمــز. ومعها تأتي الألــوان كلها، عائدةً، متـدافعة، كالتعــازيم، وتنفجر الأرض بها، وتتوامـض حولي. إنني أصنع الــربيع. مع صفرة زهــرة المرغريتا الصغـرى التي تشبه عين الثــور، زهرة غياض زيتوننــا ذات الحشائش، مع زرقة القنطــريون العنبري، مع اللون البرتقالي لزهرة القطيفــة، وأرجواني القمعية، حتى مع أزهار القرنفـل وبخور مريم في حـديقة أمي التي نسيتهــا طوال هــذه السنين كلها.إنها تعــود...مــع أن هنــاك في الواقــع، زهــرة خشخاش وحيدة، تــويجات قليلة نسيجها رقة وألــق، حول تاج من البذور.

من أيــن جاءت زهــرة الخشحاش؟ لقــد بحثت وبحثـت لكني لم أستطع أن أجد ســواها. يجب أن تكون البذور قد دفعتهــا الريح داخل الأرض، فتجـذرت.لكن، مــن أين؟ مــن البحر–محمــولة في شلاّل من الغبــار المضيء، كي تسقط بيننا؟ أو في أحشـــاء طائر في طريقه إلى الشمال، ونمت من ذرقه العابر وهو يمرق؟

أقتعد الأرض وألحظها.أنــا أحب زهرة الخشخاش هــذه.وسوف أحرسها.

بغتة، امتلأ رأسي بزهور من كــل نوع.تتفتق من الأرض في حقول عميقة، وتــدور في جمجمتي. كان عليّ أن أسمّي الأزهــار، حسب،

بدون أن أعرف شكلها، لونها، عدد تويجاتها،حتى تنفجر براعم، وتطقّ متفتحـة، تنشر ضوعها في ذهنـي، وتفتح المقاطـع السرّية وأنا أضعها كالبذور على لساني، وأمنحهـا نفساً. سأقيم بساتين كثيرة مثل هذا.أنا زهرة. أنا برسيفون. وعندي الآن الحيلة. الأمر لا يحتاج إلا إلى الإيمان.

وبالإمكان أن يتحقـق هذا، كما قدّرت، كالآتي: نحـن نمنح الآلهة أسماء فيسرعون إلينا، وهم يصعدون بمجدهم وقوّتهم وجلالهم مـن الأذهـان، يتقـدمـون ليعملـوا في العـالم الأبعـد، يغيروننـا ويغيرونه. وهكذا، تستخـرج منا الكائنات التـي نحن في طور أن نكـونها.ليـس علينـا سـوى أن نجـد الإسـم،ونـدع نـوره يفعمنا.مبتدئين، كما هو الأمر دائما، بالبسيط.

يـا زهرة الخشخـاش، لقد أنقـذتنـي، واستعدت الأرض لي. أنـا أعرف كيف أطلع ربيعا.

إنه ليكاد يبدأ . كانت حياتي كلها، حتى الآن مضيعة.

عليّ أن أدخل في الصمت لأجد كلمة السرّ التـي سوف تطلقني من حياتي نفسها.

إلا أن الكلمات، قد كتبـت.فعلا. كتبتهـا منذ سنـوات، والآن فقط أكتشف ما عنته، وأي رسالة كـانت لي، فيها: "سوف تُفصل عن نفسك، لكنك ستكون حيّا".

الآن، عليّ أنا أيضـا، أن أتحوّل .

2

الوقت يكاد يكون مساءً. نحن نجلس،الشيخ، والطفل، وأمه، وأنا، في الدفء الأخير للشمس في الحوش، خلف حاجزنا الخشب.

عار هذا الحوش، إلا من مصاطب، ومسنّنة دائرية يتدلى منها اليقّطين المعلق بخيوط كي يجفّ في الشمس. ثمت الأحجار التي تطحن بها النسوة الحبوب، موضوعة في شكل دائرة. العجوز، والدة شيخ القرية ، لا تنضمُّ إلينا هنا، البتة. وبدلاً من هذا تظل تغمغم في الحجرة الخلفية، وبين حين وآخر تُدخل رأسها ذا الفك الأدرد، من المنفرَج الضيق، وتخبرنا، كما أعتقد، كيف أن البرد شديد، محذّرةً المرأة الشابة، فالطفل يجب أن يُلَفّ جيداً، أو أن يأوي إلى الفَراش. وأحياناً لا تفعل إلا الاستناد إلى مرفقها، والإنصات، وتجفلنا بضحكتها المفاجئة.

إنه الوقت الهادئ من اليوم، حين تكون الأشغال الأصعب انتهت، ساعة ما قبل النوم. غيوم كبيرة تتحرك سريعة فوق رؤوسنا، وثمت ريحٌ تهبّ من الشمال، من السهوب، نازلةً على النهاية الباردة للنهر. الأوراق تتطاير، مدوّمةً عالياً فوق أعمدة السياج. لكن الجو دافئ في الشمس الأخيرة، حين لا يكون المرء في مهبّ الريح.

كنا تناولنا عشاءنا، هنا، خارج البيت: حساءٌ من نبات القرّاص، وجبن ماعز مطّيب بالأعشاب. أوعية الطعام، بجانبنا، على الأرض.المرأة الشابة تعود إلى العمل، تخيط شرائط من الجلد الخشن عباءةً ، قدماها الحافيتان منفرجتان قدّامها، والجلود على ركبتيها، وهي تعرق قليلاً-عند الحلق، وعلى خط شفتها العليا-،

وتتوقـف بين فترة وأخرى لتبعـد الشعر الرطـب عن حـاجبيها، بظاهر يدها.

التقطتني، أنظـرُ إليها، فالتقت عينـاها بعينيّ. إنها لم تعـد تفزع منـي، أو تحار فيّ، أو حتى تتسلى بي. فأنا مجرد شخص آخر من أهل بيت عمّهـا، حيث هي غريبة الآن مثلي، بعـد أن مات زوجها. إنها تستمعَ إلى الشيخ، يحكي للولد حكاية بينما هو منشغل يعمل في شبكة. أنا أيضـاً أستمع. أنا العاطل الـوحيد هنا، أدعُ الكلمات الغـريبة تملأ رأسي، بـدون ان افهـم شيئاً منهـا، لكنـي مأخـوذ بالرغم مـن ذلك، مأخوذ بسماع الشيخ يكتسب صـوتاً آخر غير صوتـه، عميقاً، وأجشّ، اكثـر- عينا الطفل تنفتحـان دهشةً- أو رفيعاً، نسـوياً، يجعـل الطفل يرفـع كتفيه، ويقهقـه، ويثير لدى العجوز الجالسة خلفنا إحدى نعباتها.

حكاية الشيخ ملأى بالعجائب. تساءلتُ مع نفسي ، أهي عن ذئب؟ عن دبّ؟ عن روح شيطاني؟ المرأة الشابة التـي كانت سمعت هذا كله من قبل، تراقب الطفل في توقُّع، تضحك حين يضحك، وتلاقي عيناها عينـيّ كي أضحك، أنا أيضـاً. وحين يثير صوت الشيخ- ماذا؟ ساحـراً، أحد الآلهة؟- تتوقف أصابعها عـن العمل لحظةً، وتُظلم عيناها.

في مكان ما، عميق، بداخلي ، أعرفُ هـذه الحكاية. لقد سمعتُها من قبل. فيّ طفولتـيَ من أحد عبيدنا. ربما. ولو في لغـة اخرى. النغمُ تعرّفتُ عليه.

صوت الشيخ يتموج في الهواء، بينما كانت الدنيا تعتم من حولنا.

نحـن نـدخـل في الشتـاء، في الليـل. يـداه المربعتـان الخشنتـان تشتغلان دائبتين في الشبكة. إنــه صانعٌ ماهرٌ. ولقد عـرفت ذلك. فالمرء يرى مبـاشرةً، لمسته الواثقة. إنه منغمرٌ عميقـاً في حكايته، وفي معالجتـه الشبكة، إلى حدّ أنــه لا ينتبه إلى حضـورنا، إلا حين يضحك الطفل أو يلمس ركبته لحظةً، من الخوف.

أنا أدعوه شيخاً، مع أننا قد نكون متقاربين في السن، وأنا لم أبلغ الخمسين بعدُ. شظفُ حياته، وعَنَتُ هذا المكان، قد أرهقاه، ولوّحا بشرَته، وغضّنـا وجهه، بحيـث يبدو للعين الـرومانيـة رجُلاً في السبعين من عمره. إنه متين البنية، صلب العود، وهذا لم أتمتع به يوماً، ويتبدى لي الرجل برأسه الحليق وقذاله، ذا نُبلٍ قاسٍ.

أحاولُ أن أتصـوّر حياته، مـوازيةً لحياتي عـاماً بعد عـام، لكن الصور تخذلني. فأنا لا أستطيـع أن أدرك طفولته، أو شبابه، أو أتخيل المرأة الميتة التي كانت زوجتـه، قبرها خارج القرية، حيث رأيته يتوقـف مرة أو مرتين في عودته إلى البيـت من المرفأ. يجب أن تكون حياته، مثل ما رأيتها الآن، وعاماً بعد عام، العمل، النوم، العمل. ومع هـذا تبدو لي حياته غـامضة، فالأمر المنسيّ فيهـا،هو كرامته التي تجعلني أشعر بالحمق والدُّوار.

كانـت حياتي طـائشة. فقـد رُبّيتُ لأؤمـنَ بأعصـابي، بالقلـق، بالتنوع، بالتغيير، وتعلمتُ مـنَ الكتب فقط، وكنت أعيش دائماً في حالة من الأمان الرخيّ، قادراً على تدليل نفسي، وعلى الانجراف في غيمة مـن المشاعر اللطيفة، ومـع انطباعاتي المريحة عـن ذكائي، واجتماعيتـي، ولطفـي، ومنبتـي الطيـب، وأن لا شيء يمكـن أن

يحركني بدون أن أسميه، وأن لا أومـن بشيء لست أراه، وكوني لم أجابـه تحدياً لا يستطيـع صبيٌ نـابهٌ التعـامل معـه، وكوني تعلمت مبكراً (ربما مبكـراً جداً) أن ألوي الأسئلة كلهـا، بمهارة وحذق - كيـف لي أن أعرف القوى التـي صنعت هـذا الإنسانَ، مروّضَ الجيـاد هذا، الـذي يأخـذ من طبيعتهـا شيئاً في نفسـه، ويهذبه؟ إن في عينيـه، وفي كلامـه، وفي البطء القـوي لتحركـاته، شيئاً من السهـوب المترامية التي جاءت منها تلـك الجياد ، وجاء منها مروضو الجياد هؤلاء، الذيـن لا يُدفنون حين يموتون، مثل الرجال الآخرين ، لكنهم يُتركون ليمتطوا الأرض في كتائب هواء.

غداً، سأذهب مع الشيخ، في فريـق صيد، إلى غابات البتولا، حيث الغزلان.

حين نجتمع في الحوش الصغير يكـون مكسواً بالصقيـع، وثمت نجوم، صلبة، ناتئة، خفيضةٌ فوق رؤوسنا.

نـأكل سـويةً على المصطبـة: صحون لبـن خاثـر مخفف بـالماء، مسخّــن في قدر، ومحلىّ بعسل غامق الطعم. النحلُ برّيّ يغتذي أعشاباً في عمق الدغل، وللعسل مرارة تلك النباتات الغامضة، مما يمنح اللبـن الخاثر ضـوعاً يملأ المنخـرين قبـل أن يبلغ الطـاعم مذاقــه الحلو. وعليك أن تعتاد. لكنــي جائعٌ آخذُ صحناً آخـر مع سواي.

لم نكد نفرغ من مأكلنا، حتى وصل الآخرون، مرتدين طماقات جلد ذات سيور، وقمصاناً مطرّزة مفتوحة على الصدور، حاملين

قسياً. هم ثلاثة شبان يبدون قساةً بسوالفهم السود وشعرهم الطَويل، وشيخ أشيب ضئيل، هو شامان القرية. وخلفهم في هرجٍ صاخبٍ ستةُ أطفال حفاة.

شيخي يحيّيهم، ممسكاً بيدي كل واحد منهم، بالتتابع، ويعانق الشامان الذي يردد عبارات مبارَكة، ليسَ فقط للشيخ، وإنما لكل من المرأتين، وللولد ، والمصاَطب، وعضادات الأبواب، وحتى لي.

نلتمُّ في حلقة، ونصمت. الطفل يتركنا إلى حيث القدر منصوب دافئاً في الحوش، فتغرف أمه في يديه قليلاً من اللبن الخاثر الذي كنا نأكله. يعود الطفل بخثارته ليدخل في الحلقة، ويخيم سكون بينما تتجمع شياطين الدار، زاحفةً من تحت الجمر، من أوعيتنا الفارغة على المصطبة، من شقوق الحيطان وزواياها. يبدو الولد عصبياً وهو مركز هذا كله. عيناه تدوران في الساحة، من النار إلى المصطبة، باحثاً عن المخلوقات التي تُركز اهتمامها الآن عليه، وعلى كفيه المكورتين اللتين تضماّن خليط كل حبوب الحقل وأعشابها، عارفاً أنه في فترة الاحتفال القصيرة، لم يعد هو نفسه- صغير أهل البيت، القصير السمين، ذا السنوات السبع، المدلل اكثر من اللازم، والمشؤوم – بل هو مُسَيِّرٌ قوى الظلام، وتجسيد البيت ذاته، يتنفس ثقيلاً في الصمت، ويرتجف، مادّاً يديه بثمار الأرض الشحيحة كي تذوقها أفواهٌ خفيّةٌ.

يبدأ الشامان يغني، وينضمّ إلى غنائه الآخرون. الولد يتصلّب ويختضّ.وحين ينسكب من بين كفيه قليلٌ من العصيد، وبعد لحظة شك، يخفض رأسه ليلعقه، آنذاك يقرص الشيخ الولد

قرصةً خفيفة من أذنه، بدون أن يتوقف عن الغناء. العصيد ينسكب، وأشار أحد الشبان إلى الولد بأنه غير ملوم، ثم سوّى بجزمته التراب على العصيد المنسكب. يتوقف الغناء. ونقف صامتين. عينا الطفل تطرفان قلقاً، وأراهما تتحولان بسرعة إلى أمه التي تومىء له برأسها، ثم إلى جده الذي يربت على رأسه بلطف، الولد يستدير متيبساً، ونحن نراقبه بدقة الآن، وهو يمد أمامه يديه المكوّرتين، ويعود بطيئاً إلى القدر، ويسكب بقية الخثارة على النار. النار تهسهس. ومع هسهستها تنفرط الحلقة. الجميع يضحكون، ويشرعون يتكلمون في وقت واحد، وتمتلىء الساحة بالنشاط، بينما يبتعد الرجال ليأخذوا قسيّهم، والنسوة يغسلن يدي الولد بقماشة، والشيخان يمزحان ويصفع أحدهما كتفي الثاني. يبدو أن كل العلامات مواتية، تبشر بالخير. بإمكاننا الذهاب.

الخيل – قصيرة، متينة، ذات سروج خشب مكسوة بالقماش – أُحضرتْ الآن إلى مدخل السياج، ونحن نمتطيها. الشيخ، الذي يبدو خجلاً، لي، أمام جيرانه، يُريني كيف أركبُ الحصان بلا ركاب، ضاغطاً خاصرتي الحصان بركبتيّ، أما الشّبان، فكانوا يَشغلون أنفسهم بسيور سروجهم، تأدُباً. يصفر أحدهم، وهو ينظر بعيداً، عبر بطائح النهر، إلى الشمس التي ليست سوى مسحة من ضوء شاحب على الأفق الشرقي، ينصبُ، ويتّقد في الضباب . نخرج، راكبين، من القرية. الأرض نحو المناقع بيضاء من الصقيع، وحوافر خيلنا تترك آثاراً كبيرة سرعان ما تتكسر وتنتشر، كأن فرساناً هائلين ، كالذين أراهم في حلمي، يتبعوننا

بدون أن نراهم، وهم يضعون الحافر على الحافر بصورة دقيقة. الضباب يـدوِّم من البطـائح، حول صدور خيلنـا ورُكَبنا. كـأننا نـخترق الغيومَ. لكـنّ في الأعالي ضـوءاً أصفر تقطعـه مِزَقُ غيـمٍ، والطيور تغرد.

بعـد نصف سـاعة، والشمـس عاليـة فوق الأجمة، كـرةً حمراء وحيدة، كان الهواء لا يـزال كالغيم، يشفّ في المرتفعـات، ويكثُف كنثير الموج حين نكون في المنخفضات.

نحن نتحـرك بطيئين، الخيل تشق طـريقها خـلال المستنقع ذي الحشائش المتطـاولة وتتنفـس مجهَدةً ونحـن نرتقـي التل. كـل الأرض التي تعلو بطائح النهر غير ممهـدة، وعلينا أن نلازم تلك الأرض لأن المناقع لا تزال مغمورة بأمطار الصيف.

أخيراً شرع الضباب ينقشـع. لقد صرنـا في أرض قليلة الشجـر، ينبت فيها عشبٌ مبيضٌ ذو رؤوس كالرماح، تضيء ذهبيةً وبُنّيةً في الشمـس الطـالعة. الأرانـب تفـرّ منـا إلى الـدغل، والـرجـال يضحكون ويتصـايحون وهم يـرون الذيـول البيض الصغيرة تبتعـد. نحن الآن نصعـد نحو هضبـة شجْـراء وراء بروز مـن صخور متكسرة قـد يحسبها القـادم من عـالم آخر، تحصيّنـات قـديمـةً. نحـن نصعد صعـوداً حـاداً بين الجدران الغـرانيتيـةً المنتصبة، وأسمع في أول الرتل، أول حصان يخبُّ في ما يجب أن يكون منفَسَحـاً. وحين أعتلي آخر نهْدة معشَـوشبة، والحصـان يكاد يزلق تحتي، أرى.

إنها دائرة طبيعية ضخمة. توقفَ أولُ الفرسان على مبعدة ثلاثين

باردة منهـا، وأسرع الآخرون ليكونـوا إلى جانبه. ثـم ينطلقون، معاً، في رتل، داخل ستار من أشجار الصنـوبر التي كادت الريح الهابّـة تعريها، وأنـا متخلفٌ عنهـم قليـلاً، فلقد عـرفت أننـا في صعودنا إلى هذا المكان قمنا بتحـويلة، وهذا يعني أن ثمت طقساً سيقام، ليس لي دورٌ فيه. دخلنا في ستّار الصنوبر، على بساط من الأشواك الناعمة التي أثارت حوافر الخيل عطرها.

عندما بدأت غابة الصنوبر تفقـد كثافتها، بان ما وراءها. للوهلة الأولى لم أستطع أن أتبين ما هـو. ثم أدركت من الحكـايات التي سمعتها أنـه الدائرة العظمـى لركام الجنـائز ، ربما كانـت مائة كومة، كلها من الحجر المكسور، وكثير منها لا يزال يعتليه الهيكل العظمـي للحصان، وراكبـه، مخوزقاً على وتـد، وهـي الطريقـة اللائقـة لدفـن فارس. أنـا أتبع الـراكبين حول الـدائرة العظمى. طيورٌ كبيرة تخفق أجنحتها مبتعدة وتحلّق في دائرة فوقنا. الريح تهز الأوتاد، فتقرقع في مغارزها، فاستعَدتُ جيش الأشباح الذي رأيته في حلمي.

نحن ندور راكبين، حول الدائرة، مرةً، مـرتين، ثلاثاً، ثم نتوقف. الشيخ يخُرج من كتفه محفظة ملأى بالحَبّ، وبغتةً يقود الفريق كله في سباق وحشيّ بين الموتى، جيئة وذهاباً، بين الأوتاد المقعقعة وهيـاكلها العظميـة، ملقيـاً حفنـات من الحَبّ في أفـواه الموتـى، وصـارخاً كـي يبعـد الأرواح الشريّـرة والطيور. وألحظ للمـرة الأولى أن حـولي في نـور الشمـس سيقانـاً هـزيلـة مـن الشعير، والشوفان البري، وحتى القمح. نحن في وسط حقل كبير.

تصمت صيحــات الرجال، ويـركب الشيخ إلى جـانبي، مبتسماً، ويقدم لي قبضـــة بذور. آخذُها مـرتبكاً، وأخفق للـوهلة الأولى في معرفـة مقصده. بابتسامـة تكشف كل أسنـانه الرديئة، يـرمي رأسه إلى الـوراء، ويطلق صرخة تخثِّـر الدمَ. ثـم يومـيء بـرأسه ويبدو كأنه يتوقع شيئاً.

وبوعيٍّ ذاتيٍّ منـي، أعيد الصوت. يبتسم ثانيـةً، ويصْفق كتفي، وهــو لاّ يزالُ يبتســم. أدور في الدائرة المتـألقة، مقـدِّماً تقليـدي الـخافت لصيحة موت الفارس، وناثراً حفنتي من الحبوب.

والغريب حقاً، أنني أشعـر بلحظة انتعاش، وأنا أروح وأغدو بين الأشكــال المنتصبة، ممــا ذكّرني بشيء – شيء يعجـز ذهني عــن الإمساك به، كأن هذا كله قد حدث من قبل. أنا أصيح ثانيةً، أعلى، وأدور في الحقل دورة ضيقة، كما رأيت الآخريـن يفعلون، تاركاً الهواء البارد يمــلأ رئتيّ، ثم أطلق صيحــةً مديدة، وأشعـر أنني تحررت من شيء. كأن خـوفاً ما خرج مع أنفــاسي وجعل روحي حــرة. وأقول لنفسي أنــا روماني، أخــبُّ عــائداً إلى حيث يجلـس الآخرون، مبتسماً ابتسامة عريضة. أنا شاعر روماني. لكن ذلك النفَـس، والصوت الـذي يحملـه لا يـزال يخرج من جسمــي إلى العالم، وأشعر بأني أكثر حريــة، لهذا السبب يحيِّيني الشيخ بأن يمسك يدي. يقول كلمات لا أفهمها، وبينما نحــن نركب، عائدين، ينتحي أحــد الشبان بحصَــانه جـانباً، كــي أتمكن مـن أن أتقدم الصفَّ بعد الشيخ مباشرةً، بينما بقية الفريق تتبعنا.

وأنا على ظهر جوادي، في نور الشمــس، أجدُني أفكر، ربما للمرة

الأولى في ثلاثين عاماً، بشقيقي الذي مات حين كنت شاباً، والذي احتللت مكانه باعتباري وارث أبي.

قبل ثلاثين عاماً ، وأنا على ظهر جوادي، مثل الآن، بعد جنازته. وأبي إلى جانبي، تقدمتُ فجأةً، وجعلت بيني وبين أبي جواداً. إنه غاضبٌ مني، وأنا منزعج، متضائل، لأنني أعرفُ ما يفكر فيه : فمنّا، نحن الإثنين، كان أخي هو الذي ينبغي أن يظل حياً. فأنا شخصٌ لعوبٌ، لا يصلح لشيء في العالم. أخي هو الذي كان سيحافظ على آخر قطعة من أراضينا ويتسنم منصباً عامّاً رفيعاً، ويفعل كل ما هو متوقّع من ابن طيب أن يفعله بخصوص تقوى آلهة عائلته. أعرفُ أن هذا حقيقةَ، وأَحسُ بحياتي، وثقل جسدي كله على السرج، عبئاً. كنت سأفعل أي شيء، كي أرقد في القبر الحجري، وكي يكون هو على ظهر جواده، في نور الشمس، وأبي إلى جانبه. لكن الكبرياء جعلتني عنيداً.

والذنْب. كنت لتوّي أخبرتُ أبي بأنني سأغادر، ولن أعود. ولقد بدأت بالفعل مغادَرتي، مبتعداً عنه على الممر الضيق من الغيضة، وجاعلاً بيني وبينه مسافة حصان كاملة. أنا الآن في طريقي إلى روما. أنا في طريقي، وإن كنت لم أعرف هذا بعدُ، إلى المنفى، منطلقاً إلى هذا اليوم، بعد ثلاثين عاماً، حين سأكون شيخاً، أركب مع البرابرة في نهاية العالم، خارج القانون الروماني الذي آمن به أبي إيماناً حارّاً، وخارج الدولة الرومانية التي كرّسَنا لها، حيث لا أحد يعرف اللغة الرومانية على مسافة تسعة أيام من الركوب. من كان يحزر ذلك الصباح، بأننا سنركب، مبتعدين عن بعضنا، إلى هذا الحدّ – وأن لعنته عليّ، التي قد لا يكون نطقَ بها، بل ربما

لم يسمــح لها بأن تخترق سطــح ذهنه، قــد طــوّحتْ بي إلى هــذا البُعد، وظلت طيلة هذه السنين مثل تيارٍ باردٍ على ظهري، حتى في نور الشمس.

الآن، بغتة، صار نور الشمس على ظهــري دافئاً. ففي مكان ما، في كل تلــك الصيحات البربــرية على الهضبــة، جعلتهما يعودان إلى حياتي، الأخ الميت قبل ثلاثين عاماً، والأب الدفين عاماً واحداً فقط قبل طردي. لقــد كنت أصيح من أجلهما. والطقــوس التي لم أكد أؤديها خلال جنــازة أبي – ابنٌ روماني، يضحّي، ويــرشّ بضع قطرات باردة مــن أجل أب روماني – هذه الطقَــوس عادت حيةً، فجأةً، في تلك الصيحــة، فانتهيتُ من الموتــى. حرٌ، أخيراً، لأهيىء موتاً خاصاً بي.

منتصف النهار تقريبــاً، ندخل غابة البتولا، حيــث مُطّردُ الصيد. الأشجار، منــذ الآن، عاريــة في معظم أجزائهــا، جذوعهــا الفضةُ محزوزة بالأسود، آخر الأوراق الذهــب عَلقتْ بعصا مكنسة من الفروع، والأرضُ تحت حوافر خيولنا تئنّ َوتتنخل بالُمسّاقط من الأوراق النفيضة. الشمــس مبتلة، والسماء شــاحبة والنهــارَ بلا ريح. ساكنٌ بصورةٍ غير طبيعية.

أحد الشبــان يترجل، ويــأخذ بعنان حصــانه، ينحنــي متفحصاً الأرض، مقتفياً الأثــر. ترجّلنــا جميعاً، نمشي خلفــه، ليقودنــا إلى وِجار ذئب. كانت الذئبة واقفة عند المدخل، مكشرة عن أنيابها، أما جَــراؤهــا، وقـــد دوهموا في العــراء، فقــد كفــوا عـــن التمــرغ، والمداعبة.... مخلوقات ناعمة كلها فرو، عندما جئنا تراجعوا، على

أربع، محتمين خلفها، ناظريــن إلينا. نمضي في سبيلنا، لنعثر فيما بعد، على أثر دُبّ، ثم على أثر غزلان.

ومن المدهش أن يكون بين هذه الآثار مواطيء قدم بشرية، مع أن الآخرين لم يبدُ عليهم الاستغراب. كانت مواطيء القدم البشرية، عارية، صغيرة، قد تكون لطفل. أومأ الشيخ، بوقار، وشرح الأمر بالإشـــارات. إنه طفلٌ، ولدٌ في العــاشرة أو نحوها، ولدٌ متــوحش، يعيش مــع الغزلان. كــانوا وجدوا الآثــار قبل مــوسمين. والعامَ الماضي رأى أحد الصيادين، الولد ، لكنه لم يستطع الاقتراب منه.

الهياج يتأكلني. عندي ألف سؤال لهم لكني عاجز عن قول شيء.

من أين أصل الـولد؟ من هما والداه؟ كيف وصل هنـــا؟ كيف كان بمقدوره أن يظل على قيد الحياة، عارياً في الفصول كلها، ولا أحد يطعمه ويــرعاه؟ كنــت سمعت، مــن قبل، بــأحداث كهــذه. هناك قصص في كــل مكان، عن أطفــال متوحشين، لكنك حين تــدقق في الأمر لــن تجد من رأى طفــلاً متوحشــاً رأي العين. كما أن لدينـــا التوأمين الرومانيين، الأخويــن الذئبين، أبوَي دولتنا. أتساءلُ إن كان أحــدٌ يصدق وقــائع أسطورتهما، ما عــدا قلة مــن الفلاحين البسطاء؟ لكــن مواطيء الطفل حقيقيــة. حقيقية تماماً مثــل آثار الغزلان بجانبها. لمستُ مَوطئاً منها بأناملي، محاولاً أن أتحسس، باللمــس، المخلوق الــذي خلّفَ الأثر. بــادئاً ببعض الــدفء الذي أتخيّلُ أني أحسُّــه، أستحضرُهُ، وأستدعيه. لكن هــذا غير معقول. يجب أن تكون القدم مسّــت الأرض في خطفة ثانية، حســب. كان الطفل يــركض، واثبــاً على الأوراق. أنت تعــرَف مَن عمــق الأثر،

والمسافة بين مـوطيء وآخر، أن الطفل كان يركـض مع الغزلان، وأنه كان يضاهيها في خفّته وسرعته.

ألمس أثراً ثـانياً منها. تبـدو كالمعجـزة. وبغتةً، كأن مخيلتـي قد استدعتـه حقاً، أرى الطفل، والأغربُ في الأمـر، أنني عرفتـه. أنا، أولاً، أرى هيأتـه، بين شجرتي بتـولا على مبعدة خمسين يـاردة تقريبـاً، مقعياً مثل حيـوان، ناظراً إلينـا، ولداً نحيلاً مثـل عصا، نـاتيء الأضـلاع مـن البشرة الملّوحـة، بـارز عظمـي الكـوعين والـركبتين، منسـدل الشعر الأسـود على الكتفين. وثـب لسماع صيحتي، وابتعدَ داخل الغابة.

أرأيته حقـاً؟ أم أنني رأيـت، فجأةً، بعـد كل هـذه السنين، الطفل الذي طـالما كان رفيقي السري في "ســالمو" ، والذي نسيـت حتى وجـوده نفسه. فجـأةً، كان ثـانيةً، أمـامي. هـل كانـت الرؤيـة حقيقية؟ أنا شكّاك. لكن الرجال يصدقون.

إنهم يمتطون جيادهم، بسرعـة، وينطلقون إلى حيث أشرت بيدي، حوافـرُ جيادهم تثير كتـلاً ونثيراً من الأوراق، وفي الوقـت نفسه اندفعت ستة غزلان كانت ترعى، اندفعت مذعورةً، رشيقة العدْو، نحوي، عبر المنفَسَح، وأنا أصيح وأسقط.

كانت لدى الرجال حين عادوا، قصة لم يستطيعوا أن يُفهمونيها. هل رأوا الولد حقاً؟ إنه، بالتأكيد، غير قادر على أن يسابقهم. ربما غارَ في الأرض، في وجار ذئب، أو عميقـاً في ملتّفة أوراق، أو تحت جذور شجرة ما.

نحن على خيولنا، نتقدم بطيئين بين الأشجار، نشق سبيلنا متلوياً بين الجذوع المفضفضة، كأننا في حلم. ونتنادى لنحدد مواقعنا، ونفتح عيوناً واسعة لكل حركة، مرهفًي الآذان لأي صوت.

مجموعات الغزلان تجفل منا. وأحد الشبان يصيب غزالاً، ويعلقه متدلياً على كتفه ليكون عشاءنا. قضينا، العصر كله، ندور حول مئات البردات القليلة من الغابة، كأننا في حلم، حتى شرع ضباب السماء يتجمع،والضوء يخبو. ماذا ترانا فاعلين لو رأينا الطفل؟ تساءلتُ مع نفسي. هل نطارده ونقبض عليه ؟وماذا بعد؟ ومن يكون؟ صار النهار أزرق، والظلال تتجمع حولنا، والشيخ يقرر أن نخيِّم.

نربط الجياد، ويعينّ الشيخ مهمةً لكل واحد منا. مهمتي أن أجمع أطرافاً للنار. أحد الشَبّان ظل في مكانه، كي يَسلخ الغزال ويقطعه، وقد أدى مهمته، سريعاً، نظيفاً، معلّقاً الجلد كله على غصن، ومقطّعاً اللحم قطعاً للشواء. ترك الأحَشاء جانباً، مع وعاءٍ مليء بالدمَ الأول للذبيحة.

أنا أطوّفُ، متمتماً مع نفسي، وجامعاً حزمتي من الأطراف، ثم أجلس حَاضناً ركبتيَّ، مفكراً به: الطفل.

أين هو؟ ألا يزال يراقبنا من مكمنه؟ أتذكر الآن، بوضوح، عينيه، مثبتتين عليّ، عبر المنفَسَح بين الأشجار. تلك النظرة كانت شيئاً لم أستطع أن أتخيله. لم أر من قبلُ، مثلهما، إلا عيني طفلي، في السنين السوالف. أنا لم أبتدع في قصائدي أمراً مثله، قصائدي التي كانت ملأى بمخلوقات غريبة، اقتُنصت بين الإنسان

ومخلوق أعلى أو أدنـى، في لحظة من التحول المؤلم. إنـه ليتجاوز خيـالي، ذَلـك الـوجه الصغير الحادّ، بنظـرتـه السـوداء، وأفكـرُ بشعري، كم كان يـائساً، بخرافاته الأنيقة، ومعجـزاته الجميلة، اليسيرة شرحاً، مقـارنةً بالحقيقـة العارضـة لهذا المخلـوق الذي ينبغي أن يـوجَد (إن وُجـد) لا ليتمين، بل، بكـل بساطـة، لأنه، وبكيفية مـا، وقع في الكينونة. أحضـنُ ركبتيّ، وأتحدثُ إلى نفسي بلغتي، بحيث أثرتُ الذعر في الصيـاد الشاب، الملطخ بـالدم، ذي الـوجه السمـح، والسيماء البريئـة، حتـى ابتعد عنـي. وإذ عـاد الآخرون، رأيتـه يكلم الشيخ الـذي نظر إليّ، خجـلاً، عبر ذراعه، وكان عليّ أن أعيـد نفسي إلى المجتمع – إن صحّتَ تسميتـه هكذا، فليس بيني وبين هؤلاء النـاس، إلا المشابهة البشرية المشتركة، لا التجربة، ولا العوائد، ولا اللغة.

أراقبُ الشـامان ينثر رموزه على العشـب السبط. إبرة مـن عظم السمك، قطعـة من طين النهـر في شكل كـرة غير منتظمة، حفنـة حبوب. ،وضع هذه الأشياء في دائرة رُسمت حـوله بالعظم، وأنا أنصـتُ إليه، وهـو يبدأ الترنـح، أمـاماً، ووراءً، مقتعـداً الأرض، مُطْلقاً صوتاً نسويّاً عاليـاً، مثل الصوت الذي يستعمله الشيخ في حكايـاته، إلا أنـه أعلى، وأكثر لا أرضيـةً، وهو يطلقـه في عواءات وصرخات أو في صفـرات مديـدة بطيئة، تتماوج فـوق الأرض . وأخيراً، حين يهمد، ويبدو نائماً، تنفتح يداه أمامه، ويأتي الشابّ الذي أصاب الغزال، وذبحه، إلى طرف الدائرة،، حاملاً وعاء الدم. يصبغ بقليـل منه جبهـة الشامـان، مستعملاً سبـابته، ويلمـس الشفتين المغضنتين،ثم يسكب بضع قطراتٍ في يدي الشامان. أما

ما تبقّـى فيسحبه إلى هامش الـدائرة، ونحن نجلس خـارجها في العتمة المتـزايدة، حتى يبـدأ الشامان يتكلـم بمقاطع قليلـة يظل يرددها بصوته الخاص مع عواءات قصيرة ، للأصوات الأخرى ، بينها. فجـأةً، يستيقظ، وينتهـي كل شيء. لقـد كان، بينما نحـن نراقبه، في رحلـة حلم إلى الأصقاع القطبية القصيّة. كـانت روحه هناك، تتحرك أسرع على السهوب المتجمدة عبر النهر، في المتاهات العسيرة، والصـوت الـذي سمعنـاه منـه كـان صـوت الأرواح القطبية. والآن، بغتةً، يعود واحداً منا، شيخاً عاديّاً تماماً، جائعاً، ومتيبس المفاصل قليلاً، يمشي على ساقيـه الملفوفتين ليساعدنا في إيقاد النـار، وفي ربط أغصـان البتولا مـع بعضها لتكـون مأوى مخروطياً عالياً.

تساءلتُ: هل يراقب الولدُ هـذا كله؟ وماذا يفهم منه؟ من أي نوع مخلوقاتٍ يظننا؟ هل يعرف هو، نوعه؟

أنا أفكـر بهذا، طيلة مضغي قطـع لحم الغزال المشويـة الثخينة، وَمصيّ أصابعي نظيفـةً، وفيما بعد، بينما كان الرجـال يغنّون – صوت غريـب يتردد في الغابات الخاوية. أيسمعـه؟ أي مخلوقات يظنها تُصدر مثل هذا الضجيج؟ هـل اكتشفَ أنه يستطيع أيضاً أن يخُرج أصواتاً بتنفسه؟ هل اكتشف بدايات النطق؟ أيتكلم مع نفسه، ما دام ليس معه مخلوقٌ يشاركه ذهنه ولغته؟ مثلي في هذا الأمر.

أنام متفكـــراً، وأستيقـظُ نصـفَ نائـم لأرى نفســي وحيداً، والنجـوم فقــط فـوق رأســي، ثـم أروح فــي نوم أعمـق،

وأحلم، أو أستيقظ من جديد، لست أدري.

لكني أعي، على أي حال، أن حيواناً ما خرج من الظلام، وهو ينظر إليّ. أذئبٌ هو؟ أهذا الذي أحسُّهُ خطمُ ذئب، أنفاسُ ذئب؟ غزال ؟ أم أنه الطفل؟ فكما في الحلم المبكر ذاك، أنّا أواجه شيئاً ليس نفسي، ولا من خيالي، شيئاً ينتسب إلى نظام كينونة آخر، وأنني جئتُ من أعماق نفسي لألقاه كما لو على سطح مرآة. أهو الطفلُ فيّ؟ أي طفل؟ من أين جاء؟ من هو؟

أستيقظُ. لا أحد. عند الطرف الآخر من النار، أحد الشبّان، ينقلب، ملتفاً بالجلد، في نومه ويتمتم بصورة غير مفهومة، مقاطع ثقيلة، غريبة – لستُ أعرف إن كانت هذه المقاطع بلغته، أم باللالغة التي يرددها النائمون. لا بد أن أحداً غطّاني اتّقاء البرد. أتمددُ لحظةً ناظراً إلى النجوم التي تبدو مُسفّةً. وتذوب النجوم فيّ، تتغلغلني. وعندما أستيقظُ ثانية، أرى الفجَر.

جاء الشتاء ومضى. نحن الآن في عمق الربيع. الأيام ندية زرقاء، والريح تهب رُخاءً، لكن لا برعم نرى. الشجراء الخفيضة خضراء رمادية وليست سوداء، والبحر ينبض ويتأجج. لكن لا حدائق لتتفتح براعمَ، لا بنفسج، لا أشجارَ ظل لتعرض أفنانها الشاحبة، لا جداول لتبعث خريرها وتموّجها في نُور الشمس.

كان الشتاء رهيباً، يعجز المرء عن وصفه. لسبعة شهور ظلت الرياح تهب عاويةً عبر آلاف الأميال من السهوب المفتوحة، وهي تسوِّي الدغل، وتسوط البحر زبَدا أسود، حتى يتجمد المحيط كله

أخيراً، ليصبح بمقدورك أن تمشي عليه من الشاطيء ، لترى الأسماك بلا حراك، في الأسفل. والبرك الآسنة التي تستقي منها النسوة الماء، تجمد، فيذهب الرجال في هذه الحالة ليقطعوا كتلاً ويحملوها إلى البيوت لتذوب على اللهب. من المستحيل أن تخاطر في عاصفة الزمهرير، فتخرج، بلا قبعة ذات حواش، ولفّاف من الفرو، وقباء، وجزمة، وطماق – لكن، حتى مع هذه، كلها، تتّجمد الأنفاس، وتُشكل اللحية مُدَلّيات ثلج تخزُ وترنّ. وكلامُ المرء يمكن أن يُقطع بطريقة ماء شربُنا، ويُذاَب فيما بعد، في دفء البيت، إن تجرأ أحدٌ على فتح فمه في الخارج، ليذكر الوقت فقط. نحن نتحرك كما في الحلم، كأن دماغنا استحال بلّورات صغيرة حادّة. وكأننا، شأن الدببة والمخلوقات المماثلة، قد زحفًنا عميقاً في كهف ما داخل أنفسنا ونمنا، نتحرك فقط كأشكال حلميّة، متيبسين، فاقدين البصر، ندخل في حياة الآخر ونخرج.

ذهني يذهب، باستمرار، إلى غابة الغزلان والطفل. كيف بإمكانه البقاء على الثلج بين أشجار البتولا، يمضغ أشنةً، ويحفر في الجليد بحثاً عن فطْر. أيمكن أن يظل حياً في هذا الفصل؟ أترى الرجال مهتدين إلَى آثاره في العام المقبل؟ أنا أتحرق إلى أن يخفف الجوّ من غلوائه، حتى يكون بمقدوري أن أحثّ الشيخ، ريزاك، على تشكيل فريق، والبحث عنه. إنه سرّي. وسأبوح به في الوقت. إنه الذي يُبقيني حيّاً في هذا كله. أنَا أدفئه بأنفاسي. أم أنها أنفاس حيوان ما تلك التي تدفئه، أنفاس ذئب أو غزال، حتى لو كان ذلك في أحّلامي؟ أم تراه يسبت في الشتاء، مطويّاً في غار ما، مربوطاً إلى استمرارية الأشياء بأنفاسه البطيئة فقطٍ؟ إن

كان الأمر هكذا، فكيف يطعم؟ وبم يحلم؟ أتراه يحلم؟

إنه ولد طفولتي المتوحش. أعـرفُ الأمر الآن. الولد الذي عاد إليّ. إنه الطفل.

حدثان أعطيا هذه الشهـور البيض، شكلاً. أحدهما، الأنباء الأولى في قريتنا، التي نوديَ بها من طريق إلى طريق، وأُعلنتْ ضرباً على صنوج خشب، عن أن الداسيين قد استولوا على بلدتين في الشمال وأحرقوّهما، وّأنهم يندفعون إلينـا عبر النهر. الحدث الثاني الذي تلا الأولَ، مباشرةً، هو هجومهم علينا.

النهر، قبل وقت طويل من نهاية العام، بدأ يتجمد. هذا النهر الذي يبلغ عرضه خمسة آلاف خطوة أمسى جسراً من الجليد الصلب، ومئـات الفرسـان الداسيين تـدفقوا مـن السهل الشمالي، وهـم يندفعون، مـرعدين، عبره. علينا أن نحرس أسوار قـريتنا منهم، وقد استُـدعيت أنـا أيضاً لأكـون في إحدى المجمـوعات، بعـد أن أُعطيـتُ رمحاً وخـوذة – أنـا الـذي عشـت خمسين عـامـاً في إمبراطورية سلام مع نفسها، ولم أتدرب يوماً واحداً – وأُرسلتُ لأقف وراء الحاجز الـدفاعي في الهواء الليلي البارد، مثقـلاً بجبل من الفراء، فلا يمكن التعرف عليّ.

كنت مأخوذاً بسخرية القدر هذه. بـاعتباري مواطناً رومانياً من صنف الفرسان، وسليل شجرة محاربين، مكلفاً بحماية القانون الرومـاني، وزهرة الحضارة الرومـانية، كنت أسخر مـن أفكار عتيقة مثل الواجب، الوطنية، والفضـائل العسكرية. أما هنا، وأنا

في الخمسين، فـإنني أقـف مستعداً في الطـرف القصيّ من العـالم المعروف. لأحميَ ماذا؟ مـائة أو نحوها من أكـواخ الوتّل والطين، ثلثمائة غريب متوحش لا يتكلمون حتـى بلغتي. وبالطبع، جِلدي أنا.

ولقد حدث الهجوم. وليلة مجيء المغيريـن كنت في الفراش، وكان على إحدى النسـوة أن تهزني لتوقظني مـن النوم. ولقـد سمعتُ ليلتها أيضـاً. رعدَ حوافـر الخيل على الجليد، والصنـوجَ الخشبَ تُقرَع، والأصواتَ في الظلام.

أشكال شبحية آتيـة من الشمال، آتية من حلمـي، تعدو في قوس واسعٍ من ضوء القمـر، كان ماءً قبل أسابيع قليلـة فقط. خرجتُ متعثّـراً. السهـام أمطرت مـن السماء، وسقطـت على السقـوف، وأصابت مخلوقـاً بائساً كان يحرس في زاوية الحاجز الـدفاعي، وقد سقـط وهو يتلـوّى. السهام مفـوّقةٌ بـالسُمّ. الجرح يتقيـح ويتعفّـن، ولثلاثـة أيام ظـل الرجـل المصـاب في حالـة هذيـان، يتحسس طـريقه ببـطء الى المعاشـب وراء النهر، حيـث تستقبله الأرض. طوال الليـل، كانـوا يدورون ويـدورون حول الحاجـز الـدفاعـي، يزمجرون ويعـوون كـالذئاب، والسهـامُ تتساقـط. غادروا في الصباح، وكان الدغل كله، إلى الجنوب الغربي يشتعل. سحبٌ كثيفة مـن الدخان ارتدّت، فـوقنا، سوداً، مريـرة برائحة الأشواك. لقـد مروا، متجهين، الى مستـوطنات الجانـب الترّاقي. والآن ربيع.

كنت تكلمت مع الشيـخ عن فريق بحثٍ (لديّ الآن مـن لغتهم ما

يكفي لحاجاتي الملّحة المعروفة) لكنه يبدو غير راغب في أن يُلزم نفسه.أهو خائف؟ أثمت معتقدٌ خرافيّ حول الطفل؟ أكانت أغنية الشامان في غشيته، التي اعتبرتهُا نوعاً من مباركة صيد الغزلان، أكانت في حقيقتها شعيرةً للطفل؟ من أين يعتقد هؤلاء الناس أن الطفل جاء؟ من الآلهة؟ أيعتقدون بأنه منهم؟ أهو كذلك؟ أم أنه قد يكون أتى من المَعاشب في الشمال، وأنه ضاع هنا في إحدى الغارات؟

لم أكن أخبرت الشيخ بأنني أعرف الطفل، وأنني اعتدتُ أن أكلمه آن كنت ولداً في " سالمو ". كما لم أعترف له بأنني أريد الإمساك بالولد والإتيان به، بيننا. أريد فقط أن أتأكد من أنه ظل حياً لفصل آخر، وهذا ما يراه الشيخ، باعتبار أنهم يرونني مخبولاً على أية حال، مهتماً دائماً بأمور لا تعني لهم شيئاً، متفكراً في شؤون هي في رأسي فقط.

لكن الشيخ ظل يوماً بعد يوم، يقدم أعذاراً. فالحاجز الدفاعي يجب أن يرمّم، وأن عليهم القيام برحلة طويلة شمالاً إلى غابات الصنوبر ليجلبوا الخشب. ثم يموت شَيخٌ في القرية، ويتعينّ على كل الذكور أن يؤدوا رحلة جنائزية تستغرق يومين كي يروه يُدفن.

ثم ها هي ذي الأسماك تلبط. ولأسبوع كامل يظل الرجال يخرجون، يومياً، مع شباكهم ليصطادوها. وفترة أخرى، يمضون فيها بقناديلهم، ليصطادوا الحبّار. هل الشيخ، ببساطة، يسخر مني؟ أعلينا،شأننا من قبل، أن ننتظر الخريف؟

إنــه الـخريف. وغـداً نـذهب ثـانيةً إلى غـابـات البتولا، نصطـاد الغــزلان. لا أجرؤ أن أذكر أمر الطفل. ركبنا كما ركبنا من قبل، وقمنا بـالتحويلة نفسهـا صـاعـدين إلى الهضبة، وخـلال ستار الصنوبر حيث يمتطي الموتى هياكل خيولهم. الفرق أن البرد حلّ مبكراً هـذا العام. الهضبة غائمـة، وضبابٌ رماديّ يدوِّم أمـامنا، عبرها، والأوتاد تقعقع وتتمايل وصيحات الرجال وهم يدورون راكبين، ناثريـن حفناتهم من البذور، يدّبقهـا الضبـاب، فتنقطع، وترتد إلى حلوقهم.

في الطريق إلى الغـابات كانت السماء تنثّ رذاذاً. المســالكَ ممحوّة والأرض مشبعـة بالماء والخيـول تبعث رشـاشـاً من الماء خلـلَ بُرَيكـات من الضـوء الأزرق اللامـع بين الأوراق، أو خلل غيـومٍ رمــاديـة، قــذرة. نحن نصطاد الغزلان، نسلخها، نقطع اللحمَ ونحمله في سلال. لا أثر للطفل. الـرجال الآخرون ينظرون قلقين حولهم، وهـم مسرورون حين يكون بمقدورنا الابتعاد عن المكان.

أنا أجَـنُّ خيبةً وأســى. شتاء آخر، كيـف يستطيع أن يظـل حياً؟ كيف أستطيع أن أظل حياً بدون أن أعرف أنه لا يزال هناك؟ربيعٌ آخر.

أنا أفهــم كل ما يقولــه لي بهذه اللغة الخام، هؤلاء النــاسُ الجهلةُ الطيبون. لقــد بدأت أُعلّــم حفيد الشيخ اللغــة اللاتينيــة، أن يقرأ، ويلقي قصائد، بعضـهاَ لي. إنه طفل ذكيّ، لكنه نكدُ الطبع، لا يرى نفعـاً في ما يتعلمــه. أعرفُ، وأنــا أستمــع إلى الشَيخِ، الآن، وهــو يــروي قصصــه في ســاحتنــا الصغيرة، مــاذا تعنــي الأصــوات

المختلفة: إنها ريح الشمال، إنها الذئاب، إنها العماليق، إنها اشباح المحاربين، إنها الظُّنبوب، رأس مقطوع، إنها قاع البحر. قصص الشيخ خارقة، لا تقارن بما بلغني من الإغريق، لكنها متوحشة، نوعٌ من اللعبة المبالغة التي لا تشرح شيئاً، إلا أنها تحكي مباشرة عن كابوس المشهَد في هذا المكان ورحلات حلمي عبره. إن خرافاتنا المتمدنة التي تحكي بأناقة عماً نرى ونعرف، تبدو ضعيفةً إزاء هذه الفكاهات الواضحة غير المعقولة التي يظل الشيخ يرددها. إنها كالشتاء هنا. إنا تملأ العالم. إنها تجعل الرأس يطنّ، والدمَ يخدر.تبدو حقيقيةً لكنها لا تشرح شيئاً. أنا أرى بإيجاز، وفي خطفات، كيف يرى هذا الشيخُ صديقي، العالم . إنه مدهش. عار. قاس. رهيب. مضحك. وبالرغم من هذا، يبدو لي، يومياً، أكثر نَبلاً وتَهذيباً من أي رومانيّ عرفتُه. أنا، بجانبه، امرأة عجوزٌ متهسترة. بلا كرامة إطلاقاً.

الخريف يبدأ ثانيةً. ثمت دخانٌ في الأشياء. ومن جديد نذهب إلى غابات البتولا.

للتوّ تقريباً، في النور الذهب لنهار خريفيّ لطيف، والسماءُ متكسرة في بُرَك مطر بين الأوراق الصُفر المذرّاة، ها هو ذا، يقف ساكناً، أطول بعَد هاتين السنتين، بين أشجار البتولا المجرّحة. أنا مفعمٌ بهجةً. إنه هناك . إنه حقيقيّ . الآخرون يرونه أيضاً. إنه ملطخ بالوحل ، ركبتاه وكوعاه ناتئة العظام ، وبطنه منكمش. ولدٌ قبيح في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وعلى رأسه عش طيرٍ من الشعر الوسخ.

نحـن نجلس، خمسـة منّا، في حلقـة، نحتسي قليـلاً من الحسـاء الخفيـف الذي جلبنـاه معنـا، بينما الخيـل تتجول بين أشجـار البتولا، وترعى الأعشاب التي لاتزال ترفع رؤوسها من ركام الورق. إنه الأصيل. أصيـلٌ سـاكنٌ. كان الواحد منـا يمسك كوبه باليـدين كلتيهما. نشرب، ولا نتحـدث. فجأةً، كـان الولـد هناك يراقبنا. عيـون الرجال سودٌ على حـافة الكوب، وأيديهم كـابيةٌ. ننظـر جميعاً. أولاً إلى الـولـد، ثـم إلى بعضنا، ونتجمـد. حتـى الخيول تتـوقف عن الرعـي وترفـع رؤوسها إلى زرقـة الأصيل المائية، متشممـة، وهي تحسّ بحضـور آخر. أستطيـعُ أن أسمع تنفُّسنا. كأننا جميعاً، وللحظة واحـدة، مسحورون. وكأن الزمن تـوقّف. وأشعـرُ أننـا لو استطعنـا الجلـوس هكـذا لمدة كافيـة، متربعين على الأوراق، بحيـث نبـدو مثـل أي جزء مـن الغـابـة، لوتركنا أرواحنا تخرج طليقـةً، وأصبحنا خشباً، كُدسَ ورق، أو أشنات – فلسوف يـأتي إلينا. أعرف أن الآخريـن خائفون. وأن سكـونَهم نوعٌ مـن الـرعب. هـؤلاء الرجـال الـذين لا يخافـون الفرسـانَ المندفعين في الليـل مع سهـامهم المسمـومة ونيرانهم، الذيـن لا يخافون الدب الوحشي وأنيـابه المزبدة، هؤلاء الـرجال خائفون من الطفل. أنا لست خـائفاً. إن سكوني هو بسبب خوفي من أننـا بمجرد رفـعِ إصبعٍ، أو حبْـسِ نفَسٍ، قـد نجعله يجُفـل هارباً.

وهكذا نجلس، لكـن كم سنجلس؟– ونحدّق في بعضنـا. الطفل لم يجُفل. لكنّ حصاناً خفض رأسه ليقضم، وسار بيننا، وحين عبرَ كان المنفسَحُ بين أشجار البتولا خالياً إلا من النور.

أنا أكثر هـدوءاً الآن. فهو لا يزال هناك، وهذا مـا يهمني . وثمت وقتٌ للبقية. سنظل ليلتين في غابات البتولا.

في الليلـة الأولى، وعلى طـرف حلقـة النار تمامـاً، أعـددتُ طـاس عصيـدة: خليـط حبـوب، مغليـاً بماء آس، ومطيّبـاً بـالعسـل. ولساعات بعد نوم الآخرين، أجلـس ملتفاً بقبائي، مرهفاً سمعي لوقع خطىً على الأوراق. أعرف أنـه يجب أن يأتي ليراقب. أعرف أنه يبـدأ يبحث عنا، كما نبحـث عنه نحـن. إنه ليحس بنـوع من الحنين إلينا، بنوع من الحاجة إلى إرضاء نفسه عنا، مَن نحن، وما السبـب في أن لنا هيـأةً، ورائحةً، لا تشبهـان مخلوقـات الغابـة الأخرى.

أتراه بدأ يتساءل عـن نوعه هو؟ هل حزر أن جـزءاً منا، في الأقل، يشبهه؟ مثل ما نعرف نحن، أنه في هيأته، في الأقل، منّا.

أنصتُ، لكنـي لا أسمع شيئاً. يغلبنـي النوم وأنا لا أزال جـالساً، مستنداً إلى جذع بتولا، وأستيقظُ مع الضوء الفضي الأول للفجر. أتعثّرُ لأرى الطـاس. إنه فارغ. ثمـت من جـاء ولحسَ العصيدة. غزال؟ أحـد شياطين الغابة التـي يعبدها هؤلاء النـاس؟ الطفل؟ أُخفي الطاس تحت قبائي، وأتظاهرُ بـأني كنت أقضي حاجةً، لكن الشيخ يراقبنـي ويعرف. هو يعتقد أن هذا كلـه حماقة. وحماقةٌ خطـرة. إنه يخجـل كثيراً مني، ومـن غبـاء الكبرَ لديّ، بحيـث لا يجعلني أرى أنه يعرف. يأمر الشيخ، الشبّانَ حَوله، بصوت عال وأجشّ أكثر من المعتاد، كما لو أنه يحاول إخافة الطفل كي يبتعد.

النهار رائق، ساكن، والغزلان في كـل مكان. والرجال يصطادون

ويذبحـون خمسة أو ستة منهـا، ويبدو مخيمنا في المنفسَـح مثل دكان قصّاب. رائحـة الدم تعمّ المكان، والجلود تقطـر معلّقةً من الأغصان، وقطع اللحم – الأوراك، والأفخاذ، وأنصاف الأضلاع مكدسـة، جاهـزة للتحميل. النسوة سـوف يملّحنها ويـذخرنها للشتـاء. العمل يستغـرق اليـوم كله. سنبيـت لَيلـة أخرى هنـا، وننطلق فجراً عائدين.

أعددت، ثـانيةً، طـاس العصيدة، ونمـت عند الجانـب القصيّ من النـار، منتصباً بقـوة، مستنـداً إلى جذع شجـرة، مصمماً على ألاّ يغلبني النعاس.

لكني أنعسُ مباشرة، وأحلم. إن مـا فكرتُ به نصفَ تَفكير، أمس، في الغابة، ونحن نراقب الطفل، هـو أمرٌ صحيح. لقد تحوّلْنا كلناَ، المجموعة كلها، لنمسي بعضاً من الغابة. نحن فطرٌ. نحن أحجار – أنا أميـزُ رفقتي. أنـا بركـة ماء. أحـسُّ بنفسيَ دافئاً في الشمـس، سيّـالاً، مليئاً بـزرقـة السماء. لكنـي مجرد كسرة ضئيلة منهـا، وأشعـر، بنعومـة، أن السحب تتغلـل فيّ، وتُغلغـلَ انعكاسـاتها. ومرةً... فُجـاءة الأَجنحة. العتمـة تهبط بطيئـةً. ونسمةٌ تُـرعش وجهي. وحين مرّت العتمة عليّ بـدأتُ أخاف. إن روحي تحوّم في مكان قريب، وأعرف أنها ستعود إليّ آن أستيقظُ.

لكني أخاف فجأة من أن أكون مجرد بـركة مطر في الغابة، أُحسُّ بالليـل يزحف عليّ، وأحـسّ بنفسي أبردُ وأمتليء بضـوء النجوم، أُحسُّ بالحرارة تنخفض. أتفكّرُ بما يمكن أن يكون تجمداً. أتخيلُ ذلك. لكن، فقط عند تخوم نفسي، حين بدأت بلّورات الجليد الأولى

تتكون مطقطقةً. الأمر مخيف. ماذا سيحـلّ بروحي إذاً؟ أنا أرقد في عتمة الغـابة منتظراً القمر. ثمـت خطى، ناعمة، قـربي. غزال. وجـه الحيوان ينحنـي عـليّ. أنـا ممـتلىء بالرقـة لـه. لسانـه يلمـس بشرتي، ويلحس قليـلاً. لقد أخذ شيئاً مني، فيه، لكني لم أشعر، البتة، بأني نقصتُ. إن إحساس بشرتي لخارقٌ. أنا أتكسرّ في دوائـر. بعضي يدخـل في الغـزال، الذي يـرفـع رأسه بطيئـاً، ويبتعد على الأوراق. أشعر ببضعـة مني تبتعد، والباقـي يسكن ثانية، يستقر، ويغـدو صافياً. فجأةً سألتُ نفسي: ومـاذا لو جاء ذئب؟ مـاذا لو أن اللســان التالي الـذي لمسنـي كان لســانَ ذئب، خشناً، جشعـاً، يشربني حتى آخر قطـرة، ويتركني يابسـاً؟ هذا ممكن ايضاً. أتخيـلُ الأمرَ، وأنا أُسحَبُ في معدة الـذئب. أنا أتهيأ للأمر.

وقْعُ قدم آخر، أكثر نعومـةً من الأول. أعرفُ منذ الآن أنه الطفل. أراه منتصباً أطـولَ من الغزال إزاء النجـوم. إنه يركـع وينحني نحوي. هو لا يلحسني كالغزال، لكنه ينحني عليّ جدّ قريب حتى لَترُجفُ أنفـاسُه بَشرَتي. يغـرفُ قليلاً، ويقطـرُ نورُ النجـوم من أصابَعـه في نُدف لامعـة تَسّاقَـطُ عليّ، ويشرب. أنا أتكسرُ ثـانيةً. الاضطراب مخيفٌ. الأموّاج تتكسر صاخبةً على تخومي. وعندما أعود إلى تماسكي يكون ذهبَ. أنا لا أزال أشـعُ بنور النجوم. أنام. أستيقظُ.

العتمة لا تزال. الطفل، أراه، إنـه يضع للتو، الطاسَ، على الأرض. إنـه منحن، يمسكـه بكلتا يـديـه، وقد تهدلـت خصلات الشعـر الخشن علَى وجهه.

يسمعني أتنفـس. إنه لا يبعد عنـي أكثر من عشرة أقـدام وتلتقي عيوننـا لحظةً، قبل أن يـرمي الطـاس. الطاس يتدحـرج نحوي. يثبت على قدميه، ويقف هناك، حائراً، كأنه غير متأكد، ربما للمرة الأولى، إلى أي العالمين يجب أن يفـرّ – أيعود إلى الغـابة، أم إلى أي عالم جديد مهما كان، عالم تَشمّمه، ولمسه، وأدخلَ في نفسه شيئاً منا. لقد أكل من طاس فخاًر، صنعه الناس، على دولاب. ولقد أكل حَبّاً بُذِرَ، وحُصد، وطُحن، وَغُلي، وحُلّيِ بالعسل.

لقد مّر شيء بيننا، ونحن نتواجه في الظلام. أعرف أننا تحدثنا. في لغة وراء الألسنة. في السنـة القادمة، لا حاجـة إلى اصطياده. هو سيبحث عنا.

الآن، فقـط، يتراجع ببـطء، مبتعداً في الظـلام. قدمـاه العاريتـان تنسحبان جَرّاً على الأوراق. وعليّ أن أنتظر شتاءً كاملاً يمضي.

حدث هذا كله كما عرفتُ أنه سيحدث.

انقضى العام سريعاً. وأنا عدت متماسكاً قوياً، وتوقفت عن نَدب حظـي العاثـر. صرت أذهـب في جولات طـويلـة في الدغـل المليء بالحيوانات الصغيرة والحشرات، وكلها يستحق الملاحظة. أهبط إلى الشاطيء وأتحدث مع الصيادين، بينما البحر يطحن ويفرقع الحصـا الأسود النـاعم. البحـر في هذه النـواحي مليء بـأسماك غريبة، كلها جميلٌ بطريقته، كلها مخلـوقٌ كاملاً حسب حاجاته، وكل تفصيل مـن تشريحها نافعٌ، وضروري، ومـرغوبٌ فيه لهذا السبب، حتى لو كان بين هذا السمك ما يُرعب. لم أعد أجد خطأً في

الخليقة، وتعلمتُ أن أتقبّلها. إن فينا لقوةً تعرف غاياتها. هذه القوة هي التي تدفعنا إلى أمام، إلى حيث يجب أن نصبح في النهاية. وعلينا فقط أن نعي الإمكانية، والروحُ في داخلنا هي التي تجعل الإمكانية فعلية بطريقة ما. هذا هو المعنى الحقيقي للتحول. إنه هو المَسْخُ الحقيقيّ. إن ذواتنا اللاحقة متضمّنةٌ فينا، كما الأوراقُ والأزهارُ في الشجرة. علينا فقط أن نجد الربيع ونُطْلقه. هذه التغيرات بطيئة إلى حد لا يمكن تخيُّله. وهي تستغرق أجيالاً. لكن هذه السيرورة تفعل فعلها. ونحن نتيجُ جيل بعد جيل أراد أن تكون هكذا. وأنت، أيها القاريء، ما أردنا، نحن. أأنتم، الآن آلهة؟ هل وجدتم أجنحة؟

كل يوم أخرجُ مع الشيخ. إنه أقرب صديق لي. كم غريب أنه كان عليّ أن أترك قومي لأجده. علّمني كيف أحوك شبكة، وبدأتُ أتقنُ هذا. هناك أنواع مختلفة من الشّباك، ومن الفخاخ أيضاً، لمختلف أنواع السمك. وثمت صنارات مَتنوعة أيضاً. وأنا سعيد لأني أتعلم هذا كله. الجميلُ هو الطريقة التي يناسب بها، شيءٌ، بصورة كاملة، شيئاً آخر، وجميلٌ أيضاً ذكاؤنا في العثور على العلاقة الضرورية بين الأشياء. إنه لَنوعٌ من الشعر، أمرُالشباك والصنّارات، هذه التماثلات القديمة. بدأت أيضاً أجمع البذورَ في جولاتي بالدغل – هناك أزهار مستنقعات صغيرة، صغيرة جداً بحيث لا تكاد تراها، وحين أعود أدفعها في الأرض بسبّابة قوية، فتنبت. لقد شرعت أصنع بستاناً مهما كان بسيطاً.

وطوال الشتاء أتدرب مع مجموعتي من الحرس، واكتشفت فيّ، ذلك الأمر الذي يجب أن يكون أبي عرفه، مهما أنكرته، وهو

قسَمات الجندي. كم تغيرتُ! أي ذاتٍ مختلفة جداً بدأت تطلع فيّ!

أنا الآن أفهم كلام هؤلاء الناس مثل كلامي تقريباً، وأجده مثيراً للمشاعر بصورة غريبة. إنه لا يشبه، على الإطلاق، لساننا الروماني، الذي صُممت نهاياته لتعبر عن الإختلاف، عن أضأل دقائق التفكير والشعور. هذه اللغة معبرة أيضاً، لكنها تعبر عن الحياة النيّئة ووحدة الأشياء. أعتقدُ أن بمقدوري كتابة قصائد بها. وحين أرى العالم من خلال هذا اللسان الآخر فإنني أراه بصورة مختلفة.

إنه لعالمٌ مختلف لكنه يبدو أقرب إلى المبدأ الأول للخليقة، أقرب إلى القوة التي تصنع الأشياء كما هي وتغيرها إلى ما ستكون عليه. بل شرعت حتى في أن أجد عيني تبتهج بالأشكال البسيطة لهذا المكان، والمدى الأضيق للألوان، والخطوط القاسية للجرف، والدغل، والمنفَسح، والضوء المائي. الآن، والربيع لا يمكن التعرف عليه بالبراعم والأوراق الجديدة على الأشجار، فإن عليّ البحث عنه في نفسي. أشعرُ بالجليد، فيّ يتكسرّ. أشعرُ بنفسي أتحررُ وأتدفق ثانيةً، عاكساً العالم. وهذا ما يعنيه الربيع.

كما أنني في محاجات ليالي الشتاء الطويلة، ربحتُ معركتي مع ريزاك. ففي الخريف، حين تعرى أشجار البتولا، سوف نخرج ونجد الولد، وفي هذه المرة، سنعود به، إن تحقق ذلك بدون أذى.

لدى ريزاك شك واحد. إذ عليه الحصول من الشامان على تأكيد بأنهم يستطعون المجيء بالولد إلى القرية، دون أن يغيظوا بعضَ أرواح الغابات.

أعتقـد أن مـا يخشونـه، هو أنهم بـإدخالهم الطفـلَ إلى القريـة، يكونـون بلا دفـاعٍ إزاء الكائن الـذي ربّاه وحمَاه. ربما كـانت الذئاب التـي تطوف بـالحاجز الدفـاعي شتـاءً، عاويـة أعلى من الـريح، كُتـلاً رماديـة تشبه أرواح السهـول الشتويـة، هزيلـةً، حديـدية الأنياب، متضـوِّرة من البرد. ويتساءل ريـزاك إن كان بمقدور الولد أن يحوِّل نفَسَه ذئباً في شهـور الشتاء؟ أكذلك كان يظل على قيد الحياة؟ وأين سنكـون آنذاك؟ أليس في استطاعته أن يتسلل إلى الخارج ليلاً، ويفتح البوابات لإخوته؟ أم أنّ روحاً أكثر وحشيةً ورهبةً من الـذئاب قد ربّاه؟ قد يكون حيوانـاً لا نعرفه، ولم نره. ماذا لو كان على اتصـال بذاك، وأن له قدرة اتخاذ هيأة لمخلوقٍ نتخيل فقط شكله ورعبه، وليس لنا سحرٌ يردعه؟

أنا أُجـادلُ بأنه ولـدٌ، حَسْبُ. طفـلٌ ذَكرٌ، بشرٌ مثلنا، ويصـدّقني ريزاك، أو يتظاهر، لأن لديه رغبةً عظيمةً، بحضوري، في أن يَبدو أرفع من قـومه ذوي الخرافات، ومعقولاً مثلي كما يعتقـد. لكنني أضلله في الواقع. أنا أعرفُ أنه ليس ولداً عادياً. إنه الطفل.

الصيفُ يأتي، ويزهر بستاني. أزهارٌ بريّةٌ، معظمُها كنت وجدته في المَناقع أو بين سيقان الشوفان، أو في بقعتنا الصغيرة المحروثة. من يـدري من أين هبّـت هذه البذور حتـى وصلت هنا؟ العنـايةُ جعلتْهـا قويـة، والتغذيـة المنتظمـة بالتراب العضـويِّ والسماد أظهرتْ لونها، أزرق، أحمر، أصفر.

النسوةُ يريـن حماقةً لا تُصدّق في أن يُبذل جهـد كهذا على شيء لا

نستطيع أكله، لكنهن يحببن الألوان، وسعيداتٌ إلى حدّ أنهن يزوّدنني، يومياً، ماءً قليلاً من مخزوننا الشحيح. أعتقدُ في الَغالب أنهنَ يمازحنني كأني طفل. كلُ ما حولنا عدا ذلك، موجودٌ تماماً للاستعمال. النسوة لا يستعملن حلياً. وما يخطْنَهُ ذو خيوط قوية، لكن بلا غرزة واحدة جميلة. أزهاري فقط هي اللعوب، جزءاً من حياة قديمة لم أستطع أن أهجرها كلّياً. فقط الوقتُ الذي أصرفُه عليها، هو لعبٌ.

لدى هؤلاء الناس، اللعبُ مفهومٌ جديد. كيف لي أن أجعلهم يفهمون أنني حتى قدومي إلى هنا، كان اللعب الشيء الوحيد الذي عرفته؟ كلُ ما ثمّنتُه، من قبلُ، كان ثميناً لأنه عديم لفائدة، ولأن الوقت المصروف عليه لم يكن مطلوباً، بل كان موهوباً مجّاناً، ولأن اللعب يعني أن تكون حُراً. أظن كلمة حُرّ ليست موجودة في لغتهم. لا شيءَ هنا حرٌ من طبيعته، ومن قانونه.

لكننا أحرارٌ بعد هذا كله. نحن ملزمون لا بقوانين طبيعتنا، وإنما بالطرائق التي نتصوّر أننا نتحرر بها من تلك القوانين بدون أن نكون عنيفين إزاء كينونتنا الأساسية. نحن أحرارٌ في أن نسمو بأنفسنا، إن كنا نملك الخيال لذلك.

أصصُ زهوري الصغيرة لها من التخريب هنا، مثل ما كان لقصائدي في روما من تخريب. إنها البداية. والتغييرات الأولى. أعرفُ أنني سأجدُ، في أحَد الأيام، واحدةً من نسائنا تتوقف وهي تعبر الساحة حاملةً كيسَ حبوب، كي تشمّ واحدةً من أزهاري المزوّقة. وهي ستخطو، بدونَ

أن تَعلـمَ، خطوتَـها الأولـى فـي عالـمٍ جديـدٍ.

في غضـون ذلك، لا أفكـر إلا بالطفـل. والبقية مـلءُ وقت فـارغ. يمضي الصيـف وزهـوره. يـؤتى بـالحبـوب لتـدرَس، وتُخزن. الخريف ثانيةً .

ننطلق لنأتي به.

لا أرغـب في أن أروي كيف حـدث الأمر. فبـاعتبـاري جبانـاً، لم أشارك في المطاردة، وكنت أفضّلُ ألاّ اشـهدها. استندت إلى واحدة من أشجار البتـولا، وقد جعلتُ يديّ على أذنيّ، وتركـتُ الآخرين يفعلونها عني. الخيول الضـخمة تندفـع في الغابة، مهشّمةً كديسَ الورق بحـوافرهـا الحديد، والـرجال يـولولـون ويتَصايحون، شاقّين سبيلهم في دوائر، بحيث أن الطفل، وقـد دُفع هنا، وهناك، في النَبت الكثيف، صار مشدوهاً تمامـاً، بالصيحات الآتية من كل الاتجاهات، وبالأشكال الشبحية المنـدفعة من كل أجزاء السماء. وعندمـا تعثّر في المنفسَح، وتـوقّف أمامي، كـان في غاية الـذعر، منهكاً، نصـف مجنون، كتفاه ممزّقتـان تدميان حيث تعلقـت به الفروع، وجسمه ملطخٌ بالوحل.وحين وقف هناك، وقد أحاط به الرجـال اخيراً، أطلق فمه عـواءً رهيباً لم أسمـع له مثيلاً مـن فم إنسان.

لكن حين مال أول الشبـان عليه، من الخلف، اكتشـف فجأة قوة جديدة من الطاقة تنطلق من قبضاته وقدميه وأسنانه، حتى كتم الشاب فمـه ومنخريه بيدٍ قـاسيةٍ، معتصراً أنفاسه منـه، فصار

الآخرون قادرين على الإمساك به وربطـه بالسيور. العينان فقط ظلتا تدوران وحشيتين، وفكرتُ وأنا أرى التشنجات التي خضّت جسمه بأنه قد يكون في نوبة.

وضعتُ يدي عليـه، فانبعـث هسيسٌ متـوحشٌ مـن منخريـه، وازدادت تشنّجاته. أخيراً تركنـاه وشأنه، مربوطاً مثـل خنزير، تحت شجرة بلوط، بينما بـدأ الشامان طقسه. ويبـدو أن الغناء العالي لصـوت الشامـان الآخر، الصوت القـادم من القطـب، قد هدّأه. كأن الشامان كان يغني الوحشية منه، وهو يقودها شمالاً في غشيته إلى حيـث الدائرة القطبيـة للبياض الأبـدي، ويهبط بها خلال ثقب حفره عَظم سمكة، الى الجليد. عندما أفاق الشامان من غشيته، وخـرج من دائرتـه، كان الطفل نـائماً، وظل نـائماً طيلة رحلـة العودة، مطـروحاً إلى الأمـام، على سرج الشيخ، وواصـل نومه ليوم كامل بعد عودتنا.

أي مـوكب غـريب كنـا نبـدو، صاعـديـن المنحدر الطـويل مـن المستنقعـات، في شمس الأصيـل، وضوء الخريـف يغمر بطـائح النهر، والخط الأسود الطويل للجروف، التي يرقد البحر وراءها، وهو يلتمـع، منبسطاً رماديـاً. ترك الأطفـال تخويضـهم في البرك وركضوا متصـايحين خلفنا، ناظـرين بعيون متّسعـة. والنساء الـلائي يجمعـن ثيـابهن مـن العلّيق، جئـن ووقفـن يـراقبننـا، وأذرعهـن مـلأى بـالغسيل، ملتفّـات بشـالاتهن، فـلا تبـدو إلا عيونهنّ. شـائعةُ القبـض على الولـد سَبقتْنا. الجسـم النحيل، في حجـم الغزال، المطـروح عُرضـاً على حصـان الشيخ، ربما كـان

هامـداً، ناشف الدم والـروح، مثل المفاصل التـي كنا آتين بها الى البيوت، على الخيول الأخرى.

لكن الأنباء التي وصلت بالفعل، تقول إن المخلوق، كائناً ما كان- ولداً ذئباً، إلهاً صغيراً، قنطوراً – هو على قيد الحياة.

لقد قبلته القرية داخل أسوارها. وهذه هي البداية فقط.

3

الطفل يـرقد، وهـو لا يزال مـوثوقـاً، في ركن مـن الغرفـة التي تواجهني. النسوة منذ الوهلة الأولى، رفضن أن يلمسنه. ويتعينّ عليّ أن أغسله إذا مـا وسّخ. هـن يُعْددن طعـامه، عصيـدة دقيق محلاّة بالعسل، لكنهـن لا يتخطين عتبة الغرفة. أفكُّ وثـاق يديه، وأترك الـوعاء، منصتـاً إليه عند البـاب وهو يسحـب نفسه على القش، يرشف العصيدة، ناخراً مثل حيوان جائع. هو يئنّ لكنه لا يبكي. عينـاه تظلان جـافتين، ولا شيء كالنحيـب البشري يصدر منه، ولا أن يسلم نفسه للدمـوع التي قد تحررُ الطفل فيه. الأنين يأتي من مكانٍ ما في أعالي رأسه، وقـد تعلمه من أحد الحيوانات. يظل يئن سـاعات وساعات. ولكـي يريح نفسه، ومثـل ما يفعل بعض الأطفال حين يمصّ إبهامه، فإنه يستثير نفسه دون خجل، بيديه، حتى يبلغ سلسلة مـن الارتعادات الصغيرة، مثل ما رأيت القرود تفعل، ويعيـد الأمر مراراً، حتى تنهكـه التشنجات فيهدأ، ويقعي في الزاوية، ساحباً ركبتيـه إلى أعلى بصورة حادّة، مزموم الفم، أو يتكور على القش، ركبتاه تحت حنكه، وكوعاه بينهما.

نقضي سـاعات، لا نفعـل فيها سـوى أن ينظر أحـدنا إلى الآخـر. وليست لـديّ أي فكرة عمـّا يعتمل في نفسـه من مشاعـر. إنه لا يبدي عـلائم اهتمام بأي شيء أفعله. أنـا أكتب قليلاً. آكـلُ. أرتق تمزقاً في قبائي. إنه يحدّق لكنـه لا يرى. حين لمسته للمرة الأولى، في المنفسَح، حاول أن يعَضني بقـواطعه الحادّة. والآن يتقبل كل ما أفعلـه بسلبية بـدأت تقلقني. أنـا أخشى أننـا قد نكـون قتلنا، بالفعل، شيئاً فيه. ويعتريني خوفٌ رهيـب من أنه قد يموت– من

أن ما جئنا به الى هنـا، جزءٌ حيوانيّ منه، يمكن إسكانـه وإطعامه لفترة، وإبقاؤه معنا بالقوة، لكـن فقط إلى حين يدرك أن الروح قد ذهبت، انسلّت بعيـداً خارج ذراعي الشاب الأول الـذي اصطاده وأمسكَ بـه، أو أنها تبددت خارج جسمه في تلـك الرقدة الطـويلة الأولى، وهذا أسوأ.

أنظر إليه ينام. أطرافه تنتفـض مثل أطراف كلب، مع ارتعادات لا إرادية، صغيرة، داخل الفخذين. أهـو يحلم؟ لو استطعت فقط أن أتـأكد مـن أنه كـان يحلم، إن مـا يتعينّ عليّ الاتصال بـه أخيراً، وتتبّعه ببـطء عبر سلالم الكيـونة فيه، لا يـزال موجـوداً هناك. يجب أن أعرف أنـه يستطيع أن يحلـم. يجب أن أطمْئن نفسي أنـه قادرٌ على الابتسام، قادرٌ على البكاء.

إلا أني لم أصفه حتى الآن.

هـو في حـوالي الحادية عشرة مـن العمـر، طـويل، قـويّ البنيـة، مهــــــزولها، مع تضخم ونتوء في مفاصل الكوع والركبة. على ذراعيه وسـاقيه قـروح، وندوبٌ قديمـة، تبدو كـأنها تشويهات للون اللحم، بُنّية تحت الصفرة. الأطراف خفيفة الشعر. والصدر بلا شعر. لكنَّ على امتداد العمود الفقري خطّاً من الشعر، محمّراً في لونـه كالثعلب، وهذا مـا أرعب النسوة، وجعلهنّ يمتنعـن عن لمسه، مـع أن الظاهرة شـائعة بما يكفي. فبـإمكانك رؤيتهـا عند الأطفـال الصغار في كـل مكان، وهـم يلعبـون عراةً على عتبـات المنازل، أو حين يتراشقـون في الصيف بـالماء، وهم تحت الـرذاذ. وعادةً يمـر الأمر بدون اهتمام. فقط عنـد هذا الولد، صـار لدى

النســوة، نوعــاً من علامة. ذلك، والقدمان المفلطحتان المتصلبتان بسبـب كـــونهما مكشوفتين في كل ظروف المناخ. أظافر القدمين مهترئة، وبــاطن القـدم صـــار ثخينــاً ذا قشرة عميقة، ربما مثــل صحن فخّار، لكنها لا تشبه، بأي طريقة، إلا القدم العاديّة. وإنها لشائعةٌ سخيفة تلك التي جاء بها الولد لولو من القرية، والقائلة بأنه مغطى بــالشعر، وأن له حوافر. سحبتُ الــولد هذه العشية، وجعلته ينظر الطفــل، ويخبرني ما رأى. لكنه كان أشــد ذعراً من أن ينظر كما يجب، وأظنه لم يقتنع مع أنه رأى ما تمُكن رؤيته.إن ما يتخيله أقوى بكثير من الحقائق.

أعرفُ ما يفكر فيــه. هو يعتقد أنني سحرتُ، بطريقــة ما، حوافر الطفل، وجعلتها قدمين معوّقتين لأخدعه، أو أنني سحرتُه.

تصورت أن الولد، باعتباره في عمر الطفل، ربما كان لديه اهتمامٌ خاصٌ به، وتعاطفٌ ما إزاءه. لكن لم يكـن لديه شيء من هذا. كان ينظر إلى الطفــل مستنكراً، كأنه يــوشك أن يُستبدل هنــا بسواه، وكأن – أهذا هو الأمر – الطفل قد يسرق روحه، وهو نائم. هؤلاء الناس يعتقدون عميقاً بالسائريــن في نومهم، وبسارقي الأرواح. هل يشكّــون، كما بدأت أفعل، بــأن الطفل قد فقــد روحه، وبينما نراه متكوماً نائماً في زاويته، قد يتمكن مثل الشامان، من مغادرة جسمه، مــن خلال الجدران، إلى الغــرفة الأخــرى، والدخــول في جسم لــولو بينما هــو غائب في إحدى رحــلات الحلم التــي اعتاد الأولاد الصغار أن يقوموا بها، داخل غابات الصيد، أو النهر؟

أعرفُ أن العجــوز وأمّ الولــد تشجعان في هــذا، بسبب تــأثيره في

الشيـخ. لكن ريـزاك، لسبـب أجهلُه ظـلّ سَنَـدي في الأمر. ضـد النسـاء. وضد الشامان، الذي جـاء مرةً ليتفحص الطفل، وفي تلك المناسبة رفض أن يغني - دليلٌ آخـر على النساء يجهرن بالكلام ضدي، ويناصبنني العـداء. الشامـان والنساء، طبعـا، في صف واحد.

هكذا نجلس طوال النهار في شبه ظلام.

توصلتُ إلى أن أحزر قليلاً مما يفكر به الطفل عن طريق ملاحظة ملامحه. لكننا لم نفلح في التواصل، مثـل ما حدث، من قبل، حين تكلم واحدنـا مع الآخر في الغابـة. كأن روحه التي تكلمـتُ معها آنذاك لم تعد حاضرة. أراقب الفـم بأسنانه الصغيرة الكسيرة. إن له طريقة في سحب شفتيه إلى الخلـف والتنفس بحدّة كأنه يتألم، مع أنـه يؤدي الحركة ذاتها، كما لاحظتُ، حين يهيّـج نفسه، وفي هـذه الحركـة تتكشـف بنيةُ العظامِ الغريبة، الخدّان المرتفعان، الحنك المدبـب، خطوط الفكّ. أراقـبُ العينين أيضاً. إنهما فـاحمتا السـواد، وغائرتـان. الحاجبان يميـلان إلى أعلى. والشعر الـذي غسلنـاه وجززنـاه قليلاً، في سـواد المداد، مسترسل، خشـنٌ: لا حريـريٌّ، ولا ناعمٌ، مع أن سبـب هذا يعود إلى سوء التغـذية، أو لحالة نفسه الهابطة، أو لأن نفسه لم تعـد هناك. لاحظت، سابقاً، كيف أن الشّعـر يغتذي من الـروح، فيلتمع، أو يخبو، وبخـاصة عند المرضـى. هو لا يـزال، بالرغـم من حكّنا وفَـرْكنا، أقـلّ من نظيف. كأن الأرض تغلغلـت عميقاً في جلده حتى اكتسـبَ لونها. ربما كـانت أوسـاخ الجروح القديمـة سبـب الندوب البنيـة على أطرافه. إنه ليس جميلاً، البتة، كما كنت تخيلتُ الطفل، لكني مليء

بالعطـف والشفقة عليـه، وبحاجـة إلى أن أحرره في جسـمٍ أنقى، وذلك مثل ألمٍ أعانيه.

أفكرُ وأفكرُ. أي خطوات تلزم؟ كيف يتعينّ عليّ أن أبدأ؟ أعرف أن العطف هـو السبيل – والوقت. أن أكشـف له أولاً ما هـو عطفنا، وما نـوعنا، ثم أن أقنعـه بأننا مـن نوع واحد. مـن هذا، يجب أن يكتشف ما هو.

لكـنا بدأنا بدايـة سيئـة جـداً. كيف بمقدوره أن يرانا إلا قساةً؟ أي من الـوحوش فعـل به مـا فعلنا ؟ أي مـن الوحـوش كان سيطارده عـلى صهوات الخيل، ويربطه ويحملـه بعيداً عـن كـل ما عرف وألفَ؟ ثـم هناك عداوة الولد الذي قـررت أن يظل بعيداً عنه. وعداوة النساء. وبالتـالي، علي أن أفعل هذا كله، بنفسي. عليّ، أولاً،أ ن أكون الوحيد الذي له علاقة به.

أفكرُ، على نحو غـريب، بالذئب الذي رأيته في حلمـي، الذئب الذي هدّدَ بامتصاصِ ماء كَينونتي كله، وبدأت أخاف.

الأسابيع تمر. وأنـا لم أعد أترك الغرفـة، الآن حين تأتي النسوة بطعامـه. كان في أول الأمر محترسـاً، كأني نصبت لـه فخّاً، كما فعلت مـن قبل. فهـو يتجه إلى الطاس، يشمـه، يفحصه، يتنـاوله بيديـه، وطيلة أكله، أبطـأ من السابـق، يظل يـراقبني من حـافة الطاس، بعينيـه السوداوين العميقتين، اللتين تبدوان هـذه الأيام ذواتي نقاط حمر. وبعد أن ينظف آخر الطعام بإصبعيه، يدحرج الطاس على الأرضيـة، ويسحب نفسـه عائداً إلى زاويتـه، ويجثم رافعاً ركبتيه، ربما انتظاراً لما قد أقوم به من حركة. أما الآن فهو

يأكل غير منتبه إليّ. كأني لست هناك. ناخراً وهو يأكل.

كما أني جئت بحشيّتي القش إلى الغرفة، لأنام في الزاوية المقابلة. لقد اعتاد هذا أيضاً. وبدأت أشعر أني أتواصل معه، ثانيةً، مع أن من المستحيل أن أعرف متى حدث هـذا التواصل. ربما حدث وأنا أغسله. فهو يستسلم إلى ذلك بسهولة كافية، بالرغم من أن هذا لا يعني قبوله بأن يُلمس في أي جزء من أجزاء جسده الحقيقي.

ربما حدث التواصل في لقاء مصادفـة بين عيوننا ونحن نتلاحظ بصورة متقطعـة. أو أنه حَدث في المنـَام، ونحن نتحـرك في المنام بالواسطة السائلة، كأننا نطفو معاً في برْكة. لقاءٌ عابرٌ لحلم بآخر، فيضٌ في نومه، أو فيضُ نومه في نـومي، فيَ نقطة لا يعرفهاَ الذهنُ المستيقظ، أو في إثـارة جزء من التيار غير المرئي بينما أنـا أكتب، وأغمـس قلمـي في الحبر، ويـداي تتحـركـان على الـرّقّ، أو حين أسحب الموسى على ذقني.ربما اصطدم بأحد هذه الأمور، فأحسّ به. من يدري؟ لكني متأكد الآن من أن التواصل قد حدث. فهو لم يعد يئنّ، ولا يترجّـحُ وراءً وأماماً على ركبتيه، مُصـدراً زمجراته الصغيرة من مؤخّر حلقه. إنه يراقب. وأبدأُ أعتقد أن ما سأسميه ذهنَه قـد علَقَ، وشرع يطّلُع في الغـرفة. أنـا أشعر به. إنـه لهناك أخيراً. إنه هنَاك. وقد بدأت عملية تَبَدّيهِ خارج نفسه تعمل بذاتها.

اليوم وأنا أغسله، وضع أناملـه، بنوع من الفضول الخجول، على ظـاهر يـدي، متحسسـاً مادّة البشرة - ثـم ارتـدّ سريعاً، كـأني سأعترض وأعاقبه. كان التأثير غريباً، ومخيفاً قليلاً . كأن حيواناً خرج من الظـلام ولمسني بلسانه. هل بدأ يحسّ أخيراً بـانطباعة

ما عن كينونته؟ أيعني هذا، بالنسبة له، أمراً مثل لمس انعكاسه في المرآه؟ أتساءل إن كان لديه أي مفهوم عن جسده، ما هو، ما هيأته، ما أبعاده، كيف يحتلّ مكانه الصغير من الكون؟ أينبغي أن يتخيل جسده أولاً، وبعد هذا، فقط، تأتي معرفة ما هو؟

ثمت ذكاء. أنا أشعر به. والآن، أكثر فأكثر، وأنا أمضي في بعض عملي، كأن أقرأ مثلاً، فأدرك أن في الغرفة مركزاً للطاقة منفصلاً يُربك أفكاري، ويرسل تياراً معاكساً يتجه مثل أمواج ضوء نحوي، ويتكسر على حافة وعيي. أعرف أن الغرفة ملأى بأحاسيس ليست أحاسيسي، حَسْبُ، وبأفكار ليست لي، تتواثب في الجو الساكن الرطب للضحى، حيث أجلسُ وأنا أكتب، والولد متوترٌ مثل نابض، يَرقب من زاويته – إنها بدايات قلق الذهن، قلق الجسد، إنها اخْتلاجات حياة جديدة فيه.

إنه طفل، على أي حال. وهو يحتاج إلى نشاط. جسده يحتاج إلى التعبير عن نفسه بالحركة، وذهنه يحتاج إلى أن يقترب من الأشياء، ويلمسها، ويختبرها.

الآن أمضى الطفل، هنا، أسبوعين. بعد تلك الأيام الثلاثة الأولى حين نام، وحاولت روحه أن تدفن نفسها في الأرض، وهذه الأيام الأخيرة حين عاش في حالة نصف النائم، بعد الأيام كلها، بدأ ينتقل من جديد إلى اليقظة، إلى الانتباه الكامل لفتوّته. أمس، وأنا خارج من الغرفة لفترة وجيزة، بدا أنه لمس لوازم كتابتي. كان الحبر مُراقاً. مسحت الحبر، بدوَن أن أبدي أي علامة تدلّ على أني

عرفت بأنه كان يعبث بالأشياء. ملأتُ الدواة، ووجدت موضعي من الرّقّ. وكدتُ أنفجر ضاحكاً لرؤيتي لسانَه أزرق. اليوم، وقد خرجتَ من الغرفة أيضاً، وقفتُ خلف الباب، مباشرة، وراقبت. سحبَ قدميه نحو لفّة الرّق، وحدّقَ فيها، وخمشها بسبّابته، ثم خفض رأسه وتشمّمَ. يجب أن يكون اندهش كثيراً لأن اللفّة لا تزال تحمل رائحةالجلد الحيواني. افتتن ثانيةً بالحبر. تشممه أيضاً، لكنه اعتنى بألاّ يريقه. تناول القلم بيده، وكان دقيق الملاحظة بحيث أمسكه بطريقة غير ماهرة، لكنها صحيحة، بين الإبهام والسبّابة. بدا معجباً بنفسه. غمس القلم في الحبر، وهو يعاني صعوبة في أن يُدخل القلم المتوازن بين أصابعه، في الفتحة. انحنى على الدواة، وبدت على وجهه نظرة التركيز البشرية الخالصة، تلك التي يراها المرء على وجوه الأطفال الصغار، وهم يحاولون للمرة الأولى أن يرسموا، أو يخربشوا للكتابة، أو ينظموا خيطاً في إبرة – العينان مثبتتان، اللسان مدبب في زاوية الفم، يتحرك مع كل إشارة من اليد، كأنه أيضاً أحد الأطراف التي يجب أن نستعملها نحن البشر، إحدى وسائلنا في ولوج العالم، وفي تحريك أشيائه وتغييرها. أمن هنا يبدأ الكلام؟ في حاجة اللسان تلك إلى أن يكون فعّالاً في العالم، كاليد بين الأشياء، تمسك، وتدفع، وتشكلُ، وتعيد الصنع؟

وفي مراقبتي، خلف الباب، محاولات الطفل الأولى، التعاملَ مع أشياء عالمه الجديد، وجدتُ عينيّ مبتلتين بالدمع.

ثمت شيءٌ في إنسانيتنا، في الدخول البطيء للمخلوقات من نوعنا،

إلى كل ذلك الذي اكتشفناه وصنعناه – إلى أنفسنا، وإلى العالم من حولنـا – إنه لمؤثر دائماً مثل هـذا، فالمرء يحسه في جهـود الطفل الأولى ليدفع نفســه أعلى، ليدفع نفسه تلـك الخطوة إلى أعلى التي يجب أن تكـون استغرقـت لـدى أسلافنـا قـرونـاً ليتخيلوهـا، ويحلمـوا بها، ويجدوا الأطراف لها. أو في وضـع طابـوقة فـوق أخـرى، للمرة الأولى، بصـورة متقلقلة، كـي يُبنى بـرجٌ صغير، بدايـات مدينـة. كل تلـك العصور مـن الاكتشاف البطـيء، أعاد الطفلُ العيش فيهـا، خلال شهور قليلة حسبُ، وهـو يستفيد من تجربة لا يستطيـع البتة أن يكونَ امتلكَها، والتـي يجب أن تكون كامنـة فيه، وفي حيـوات تحت حياته، لآلاف مـن الموتى طـويلاً، هؤلاء الـذين جلب وعيهـم، معه، بطريقـة ما، الى العالم. كـم هو مؤثـرٌ، إذاً، أن أرى طفلي، يصنع الاكتشافـات التي ستـؤدي به، بعد سنين من النفي، إلى ميراثه، إلى المجتمع الذي يخصّه.

الآن، تركتُ يديه حرّتين، ولعـدة أيام. أخيراً، هذا الصباح، فككتُ وثاقـه كله. إذ لم يعـد ضرورياً. وكـل ما سيربطـه بنا، وبحيـاة جديدة، هو قائم غير مرئيّ، ولا بد أنه يتحسسه: شبكة الشعور، أي هذه الغرفة، الأوتار – فضولٌ، حاجةٌ إلى أن يستنبط ما ينفعه مـن كل هـذه الأشيـاء المحيطة بـه، والطـريقة التـي تحدده بها الأشياء، وتجلو استخدامات جسده هـو – هذه هي الخيوط التي تمسك بـه الآن، أوالتي سيســافر ذهنه عبرهـا ليكتشف كـم هو مرتبـط بنا، بـالطاس، ومغرفـة الماء والسطل، والإسفنجـة التي أغسلـه بها، والتي شرع منـذ الآن يستعملهـا بنفسه، والـدواة، والقلم والرِّق، والكرة الملّونة التي وضعتُها حيث لا تخْطئها عينه،

والتي يجب أن يكون أدرك أنها له، فأنا لم ألمسها البتة. أشعر بأن ذهنه ينطلق نحو هذه الأشياء. أشعر، حتى في الظلام ، بالارتعاش الخفيّ للأوتار.

لسبب ما، في هذه الساعات الطويلة من الجلوس إلى الطفل، أراقبه يتحرك ببطء خارج نفسه، محاولاً ان أتخيل نفسي، مكانه، لأكشف كيف يَجب عليّ أن أمضي به إلى طفولته المفقودة، وجدتُني أنزلق، أكثر فأكثر، إلى طفولتي ذاتها – المفقودة أيضاً حتى الآن، أو المرفوضة، إلا أنها المنسية طويلاً بالتأكيد. أسقط في موضع بلا زمان في نفسي حيث يعود الماضي، فجأةً، بكل امتلائه، أو باستمراريته. أنا هناك ثانيةً. أتّصلُ مع ذات جد مدهشة بحيث لا أكاد أصدق أنها أنا. والامسُ تجربة أعرفُ أنها لي، فقط لأن حيويتها لا يمكن أن تكون إلا حيوية حياة مستردّة. فالخيال غير قادر على أن يقدم للذهن، للحواس، شيئاً حقيقياً بهذه الشدّة.

كل الناس، بالطبع، يخلّفون طفولتهم وراءهم. ،هذا جزء من اكتشاف ذات جديدة في الرجولة. لكني اعتقدُ أني فعلتُ أكثر من الآخرين. إذ أن بساطة تلك السنوات المبكرة في "سالمو" لا تتناسب مع دوري الجديد، باعتباري ابن مدينة، وشاعر العاصمة المحنك، ولا شك في أنني سأشعر فقط بالقلق، وبنوع من الإشمئزاز، لو حاولت المصالحة بين الإثنين. وللسبب نفسه، وجدتُ من المؤلم أن أرى أبي، الذي ظل مستاءً مني – حتى بعد

شهرتي الأدبية التي كان من الممكن أن تعوّضه قليلاً عن إخفاقي في أن أكون رجل أعمال. تزوج ثانية، وصارت له عائلة أخرى. وسهّلَ عليّ، هذا أيضاً، أن أظل بعيداً. لقد عشت، بعد نهاية زواجي الثاني، كما لو أنني بزغتُ إلى العالم كاملاً مع ديوان قصائدي الأول، نمطاً جديداً بالتمام، مخلوق آرائي الصريحة، وبلا عائلة ورائي، لا عشيرةٍ، لا وطن، لا ماضٍ من أي نوع.

والآن يعود إليّ كل شيء.

خاصة، وبمشاعرَ غاية في الرقة، كما لم أعرفْ منذ زمن طويل، حتى أنني لا أستطيع الآن استعادة آخر وقت غمرتني فيه، أمسيات معينة من طفولتي المبكرة حين عُهدَ بيّ وبأخي إلى نسوة المنزل، وخدم المزرعة، يغسلننا ويُلبسننا للنوم، سوية مع أطفالهن، أولاداً وبنات، الذين هم في مثل سنّنا، والذين لا يزالون، في حينه (باعتبارنا لم نتعلم بعدُ أن نراهم عبيداً) لداتنا في اللعب في ساحة المزرعة وغياض الزيتون والبساتين الأبعد.

في المطبخ الكبير، المصفّح بالحجر، وتحت الدعامات، أحواضُ ماء دافيء وصابون، ونحن الأطفال، عشرة أو أكثر، نطرطش معاً، أو نجذف في برك على الأرضية، صارخين جميعاً، وهاربين، كلما برزت إحدى النسوة، اللواتي يحملن على أذرعهن مناشف بيضاً زاهية كبيرة، ويحاولن الإمساك بنا. إنه، لي، مشهد جمال ذهبي ونقاء. وأشعر بروحي مغسولة بمجرد تفكيري فيه: الأجساد النظيفة العارية، المناشف البيض، والنسوة يضحكن، ويمددن أذرعهن العارية المبللة.

في أيام الحصـاد هذه، كان يُسمـح لنا بالنـوم في الخارج، في بيت المزرعـة مع مربيتنا. أما أمي المريضة، التي تعاني صداعاً من حمّى القش، فقد لزمت غرفتها، ولن تظهر. أبي يخرج كل صباح مع الحاصدين، وإن كان العمل بعيداً في الجانب الآخر من الوادي فإنه يبيت الليل هناك مع العمال.

كنا ننـام مع الآخـرين، على حشيّات قـش واسعة خلـف المطبخ، ونظل مستيقظين والنسوة يروين لنا حكـايات عن أرواح الغابة، وعن شياطين أقدم من آلهتنا الرومانية، يعيشون في زوايا عجيبة من البيـت والهُرْي، ويجب استرضاؤهـم بقطع مـن العجين (إذ يأتـون طلباً له متنكريـن في هيأة جرذ)، أو بأعشـاب لا تعرف كيف تجمعهـا من أعـالي التلال إلا أكبر النسـاء سنّاً، وأكثـرهن حكمةً. إنـه عالم امرأة لـن أعرفه ثـانية. عـالم له رائحة الـرغوة والعجين، رائحـة اللبـن الخاثـر، والصـوف الخام الـذي أرى العجائز يمشطنه على جدار شرفـة في الشمس، والحقول وراءهن خفقةُ أجنحـة. في الصباح الباكر، قبيـل الضوء، نخرج سـويةً في فـريق، نسـوةً وأطفـالاً، إلى مُـروج الماء، لنجمع الفطـر الكبير ذا اللون البرتقالي الأصفر. أنا أرقـب النساء، ذوات الأقدام الحافية، يرفعـن تنوراتهن في النـدى بينما هنّ مقرفصـات يبُلنَ، عـاليات الرؤوس تحت سلال القش. وفيما بعد، في طـريق العودة، يبدون فضـائحيـات، حين يتوقفن في الحقـل الحصيد، ليقدمـن انحناءة سـاخرة إلى فزّاعـات بريابوس الملطخة بالقـرمز، والموضوعة في حقول القمح، كي تطرد الطيور. وحين نعود، ففي الساحة بيض ينبغي جمعه مـن تحت الدجاج وهي في القنّ الخشـب، وخنازير

ينبغي إطعـامها، وحبوبٌ تنبغـي تذريتها في الهواء بغـربال. وفي بـرد المطبخ، في المسـاء، فطـائر دُخـن لتُخبز، وتفـرَك فيما بعـد بالقـش، كـي تتشبـع بـالعسـل. ثُم تهبـط العتمـة. ويـأتي الاستحمام.

أراقـب ثانيـةً. إحدى البنـات وقد رفعـت تنورتها عـن ساقيهـا العـاريتين، وذراعاهـا تلتمعان مبللتين، تقـود أخـي من ذَكَـره، وتطـوف بـه حـول الحوض مثـل وزّة، بينما النسـاء يـرمين رؤوسهـن إلى وراء، ويضحكـن، والأطفـال يطـرطشـون الماء ويصفقون، ويقذفون الرغوة في الهواء. وأعرف فجأة، بعد حوالي خمسين عاماً من الحدث، أن تلك يجب أن تكـون البنت التي ينام أبي معها. أراها تقود أخَي، الوارثَ الصغيرَ لكل هذا العالم، حول أرضية المطبخ المصـوبنة، بينما النسوة يبدين اسنـانهن فاغرةً، ويمسكن خواصرهنّ من الضحك.

إنه لمنظـر في غاية البهجة، وأنـا في مركزه، أفهمُ ربما لآخـر مرة، قلـيلاً مـن سرّه. إنه لَعـالمٌ آخر. كم غـريبٌ أن أجـد نفسي عائداً هنـاك للحظات عجيبـة، عـارفاً أننـي لم أفعـل شيئاً مهما كـان ليكشف لي آنذاك، وأنني سلكتُ سبيـلاً مختلفاً في عالم الرجل، في المدينة، والـدولة، مثـل ما سلـك أخي أيضـاً سبيلاً مختلفـاً، إلى الموت.

لكن الأغرب في الأمـر أنه ظل طوال هذا الوقـت، هناك، لم يُلمَس، ولم يُستعد، ظلّ جديداً، بهياً، وحقيقياً إلى حدٍ أني لا أزال أستاف شميمه، شميم النقاء الطريّ.

أفكر أيضاً، في هذه الساعات الهادئة، بموت أخي، وقت الباريليا، تماماً بعد عيدي ميلادنا، اللذين يقعان في اليوم نفسه.

كنا على الدوام قريبين من بعضنا، مع أن مزاجينا مختلفان جداً، فهو ذو ذهنية جادّة، ومفعم بإحساس عميق بالولاء لأشياء، لأبي، للمزرعة التي يعرف كل صُوىً الحدود فيها، للعائلة المرتبطة وثيقاً بالبلد هنا، أراضي العشيرة القديمة، بليني، وأنه لعميق التقوى، بحيث أحترمه لتقواه وأحسده، لكني، وقد أخذتُ، مبكراً، دوري كشخص لعوبٍ، كنت أفعل ما هو متوقعٌ مني، فأسخر من تقواه.

يرقد مريضاً، أياماً، وهو عاجز عن النطق. إنه في الثامنة عشرة فقط. أجلس معه في الغرفة المتصلة بالباحة، حيث يرقد، متصببَ العرق، على سرير نهاريّ، وهو فريسة ارتجافات باردة، فمُحرقة. أقرأ له قليلاً، لكنه عاجزٌ عن المتابعة. أقرّبُ الماء من شفتيه، وأحسُ بيدي ترتعش وهو يشرب. أنا أبكي، وأخجل لبكائي. عندما حلّ يوم الباريليا، خرجت مثقل الفؤاد، آن الغروب، لأؤدي الواجب الذي هو واجبه، أحسُ بعيون النساء عليّ، وفي خطواتي عبر الحقول حيث النيران الصغيرة تشتعل في الظلام، أعرفُ أني لو سمحت لنفسي، حتى لحظةً واحدةً، بأن أومن بالطقس الذي سوف أؤديه، كما يفعل هو، فإنني سأحلُ محله، وأجعله زائداً عن الحاجة، ما دمت سوف أطمئن الآلهة (التي هي غير موجودة) على أني هناك، لأحتلّ مكانه.

أرتقي، جاهداً، التلّ، من خلال العشب الأصفر، مُقوِّياً عزيمتي،

مع أن هـذا في الحق هو المهرجـان الذي أحببته دائماً، منـذ ذهبت أول مـــرة، على كتفي أبي، كي أرى النيران توقَد، وظلال الرجال تتقافز بين الذرة.

أنا أيضاً أعـرف كل الصُّوى لحدود أرضنا، لكنهـا تعني لي شيئاً مختلفـاً. إنها حيث يبتـديء العالم. وراءهـا رومـا، وكل العــالم المعروف الذي نحكمه نحن الرومـانيون. خارجاً، وراء الصوى، يبـــدأ السرّ. ذهني يغامر خارجاً، يلمس الجلاميد العتيقة المهترئة مجلببـةً للحظ، ثـم يمضي في الظلام، مـالئاً المجهـول بما يجب أن يُتَخيل، ما دام عصياً على الرؤية.

أما أخي، فأعرف أن المزرعة، وذهنه، شيء واحد. الأحجار تتوهج عند حدّ ما هّيتــه: هذه الحقول التي نُقّيت من حصبـائها ومُهّدت مصاطب، شجرات الزيتـون العتيقة ذات الجذوع المنتهشة عَميقاً بحيث تستطيـع الاختباء فيهـا، كما تفعل أرواح الغـابات، هــذه الكروم، والمناحل، ومنحدرات الذرة المتـدفقة بالنور تحت القمر. أسير خلال هــذا كله، وأنا أحسُّ بـرؤوس العشب تمسح سـاقيّ العاريتين، وأبلغ الحقل حيث أبي ينتظر.

قد كان أدّى نوبة عمله، وهـو الآن ينشف جسمه بقماشة، أقبّله. أتركُ أحد العبيد يُرخي قبائي. أرشف من دلو الحليب. آخذُ بيدَي نبتة الفـاصوليـاء ورماد العجـل. يغمس أبي غصـنَ غار في الماء ويرشّنــي به. إنه يبكي. صـَدري. حاجبي. تطْـرُفُ عيناَي تحت رذاذ القطرات الصغيرة.

أكوامُ التبن يجري إيقـادها على طريق الحقل كلــه، من أجلي، كي

أقفز عليهـا، وبينما أنا أعـدو وأطير فوق الكـومة الأولى، شـاعراً باندفاعـة الهواء في رئتيّ، شـاعراً ببهجتـه، بالـوثوب، بكـوني تطهّرتُ، وجمعتُ في شبكة الأشياء، دخـان القش، الأصيل المعتم، طيور السُّبَد المنطلقة نحو الحشرات بين الصنوبر، توائُب النبتات الفتية تحتي.

أعـرف أن الأمـر قد حـدث -لقـد خلّفـتُ حبّة إيمان في كـل هـذا المتبرعم في ذهنـي، وقتلتُه. أخـي ميت. أحـسُ بالأمـر، حقيقة، في أطرافي وما اعتراها من وهن وأنـا أستدير إلى البداية، وفي انقطاع أنفاسي، وأنـا أميلُ إلى الأمام، يـداي على مؤخرتي، لاهثـاً للهواء. أشعرُ به، كالآثم، في اتقاد جسمي بعـد التمرين. لقد عدوتُ موت أخي. وعندمـا رشّوني ثانية بالغار، وشرعـتُ أعود عبر الحقول التي تعتم، وأنـا أحسُ بعرقي ينشف في النسيـم، فإن الأمر، على قدر علمي، قد حدث. أتوقفُ عند مدخل الساحة، وأنصتُ إلى أول العويل من البيت، وأسمعها، أصوات النسـاء.

جالسـاً عند حدود الحقل في الظـلام، أُرخي صندلي، أُعفّـرُ كتفيّ ورجليّ وشَعري بالتراب، وأعـرفُ بصورة مشوشة مـاَ أنا مُقْدم عليه. أنـا أحاول أن أمسح التطهر الـذي كان له، أنا أدفـعُ كفّارة لحظتي من الإيمان. هكذا تحدث هذه الأشيـاء، عميقة في حيواتنا. نحـن لا نتحدث عنهـا. نحن نخفيهـا حتى عـن أنفسنا، لكنهـا لا تتركنا. ومهما سخـرنا من التراب الذي جئنـا منه، فإنـه يغطينا، نزحف عائدين إليه، إلى ثخنه على أطرافنا، إلى رمله في أفواهنا. لقد قتلتُ شيئاً فيّ، تلك الليلة، وحاولتُ أن أغطيه بالتراب. أما الآن فهو يصرخ في داخلي من جـديد، وأجـد نفسي راغباً في أن أكلـم أبي لو

استطعت، بعد غربة كل هـذه السنين، وأخبره أنني وجدت طريق عودتي إلى تلـك البلاد التي لـن أراها ثـانيةً، وأنني في بلـدي. لقد اعترفتُ أخيراً بـديونه المستحقة عليّ. أنـا أعرف أين وُلـدتُ. ذلك يعود بذهني، كما هو الأمر دائماً، إلى الطفل. ما بلده؟ ما نسبه؟ في أي لحظة جـاء إلى العالم، وتحت أي علامـة نجم؟ مع أي كـوكب صـاعد، وفي أي منـزلة مـن منازل القمـر؟ وإن كان يجهـل هذه الأشياء، فهل باستطاعته أن يعرف من هو، وما سيكون قدَره؟

أم أن عدم المعرفة يجعله حراً؟

هذه الأيام نخرج كل صبـاح، الطفل وأنا، لنتمرن على دروسنا في الهواء الطلق، حيث ليس بمقدور الولد ونسوة البيت سماعنا.

الولد يحمـل الكرة الملوّنة التـي صارت تعويذتـه، وأول ما امتلك بيننا، وهـو لا يتخلى عنها البتـة. وفي المنام يتكـور حولها. وحين يـأكل يضعهـا في ثنية ركبتـه، وهو يجلـس متربعاً، والطـاسُ في حضنه، ممسكاً أخيراً، وبطـريقة مضحكة، الملعقة الخشـب التي علمته استعمالها. وعنـدما نتمشى خارج البيت يحمل الكرة بيده اليسرى.

أتجنبُ الأمـاكن التي قـد نصادف فيها قومـاً من القريـة: نسوة يضربـن ثيـابهن على الحصـا، أو ينشرنها على شجيرة العلّيـق، ورجالاً يـدفعون محاريث ثيرانهم إلى الحقـول الضيقة عنـد حدّ الحاجز الدفـاعي حيث ينمو محصـولنا الشحيح من الشـوفان. أتجنب أيضاً الغيضة الصغيرة إلى الغرب، المقـدسة لدى النسوة، حيث يضحين في منازل للقمر معينة، للآلهة هيكات، أحشاء كلب.

هكذا تتبقّى فقط الأرض الناقعة باتجاه النهر.

أخلعُ نعليّ (الطفـل يمضي حافياً، وعـارياً إلا مـن رداء فضفاض، سرعان ما يخلعه بمجـرد ابتعادنا عن مرآى القريـة) ونتوغل في الشجْراء، إلى جزيرة معشوشبة يغطيها الشجر الخفيض والقليل من الشوفان البري، وهناك، كل صباح، مع طيور المستنقعات غير المرئية حولنا، زاعقة صائحة، أو متسلقة بصعوبة السماءَ الندية، ومع الضفادع وهي تنقّ، نبدأ.

أنا أعلمُ الطفل الكلام.

وإنها لعمليةٌ عسيرة. كنت أكتشف منـذ حين، في رحلاتنا معاً، أن باستطـاعته محاكاة أي طير أو حيـوان نصادفه، وهـو يبتهج إذ يُريني كيـف يستطيع أن يصفر مثل الصقور الكبيرة التـي نراها بين حين وآخر طافيـةً عالياً تحت السحاب، أو يطلق صـوته: بكْ، بكْ، عنـد جذع شجرة مثـل نقّاري الخشب في طفـولتي، الأرواَح المَقدسـة في ريفنا ريف «سالمو». يقـف متباعد القـدمين، يداه على ردفيه، ورأسه مرتدٌّ إلى وراء، مستقبـلاً النور، شفتاه تتقلصان، وملامحه تتوتر لتغدو ملامـح الطير الذي يحاكيه، لتغدو منقاراً، عُرْفـاً، لُغداً، كـأنه يُطْلِـع من جسمـه الصوت المطلـق للمخلوق، وبـالتـأكيد، في دخـولـه الحيـاةَ السرية للغتـه، يُصبـحُ، للحظة، المخلوق نفسه، ولهذا يبدو لعينيّ أنه تحوّل في معجزة.

أحياناً يستخدم يديه آلـةً للصوت المرتعش، والمنساب، نافخاً عبر قبضته، ومفرقعاً أصابعه. في أحيان أخرى، تنطلق الصرخة منه، ببساطة، عاليةً وصافيـةً، أو يأتي اللَّحن من أعماق حلقه، غمغمةً

حنجريةً، أو يعطـي جسمه، فجأةً، قعقعة معدنيـة، أجفلُ لقربها. كـانّ أي طير مـن أنـواع الطيـور المختلفـة –الحمام، الغـربـان، الخوّاض، الطيور المهاجرة المحلقة عـالياً والتي لا يعرف امرؤ في أي أفق كانـت– تحيا في داخله، وبمقدوره أن يسحبهـا بنفَس من بين شفَتيه، كما لو كـان لديه مدخلٌ إلى مكـامنها في الأعشابً، أو أنه كان معها في قاع النهر حيـث تغوص طيور الماء إثر فرائسها، أو في أعالي الهواء حيث تعجز المخيّلة عـن متابعتها، وتعجز الأذن عن التقاط كيف تترجم صرخاتها عند حدود النجوم.

بعد أن لاحظتُ كيـف يُصدر هذه الأصوات، وأصـوات الضفادع والـزيزان، والأرانـب، والـزمجرة الخفيضـة للذئاب ونبـاحهـا المخيف، توصلت إلى مفتاح، أخيراً، قد أتمكن بواسطته من تعليمه الكلام.

كامـلُ وجهه يلتـوي بشكل مختلـف عندمـا يحاكي صـوت أي مخلوق. وإن كان يتكلم، دائماً، مثل ضفدع أو صقر أو ذئب، فإن عضـلات حلقه وفكّـه يجب أن تنمـو لتنـاسب الصـوت. إن بين المخلوقـات والأصوَات التـي تصدرهـا علاقـة حميمة، هـي من العمق، بحيث أن المخلـوق وصوته، واحد. ولـذا، ينبغي أن يتعلم كيف يتواصـل، من خلال أجهزة نطقه هو. ولو استطعت أن أبينّ لـه شكلها الطبيعـي لأكتشف استعمالها. ولهذا السبـب، عندمـاَ أصدرُ الأصوات التي أريدُ أن يحاكيها، والتي يجد صعوبةً بالغة في سحبها إلى شفتيـه، عمدتُ إلى وضـع أصابعـه على حلقي كـي يستطيع أن يسمـع طنين صوتي هناك، أضـع أناملـه على شفتيّ كي يستطيع أن يحسّ بشكلها، وبانسياب النفس. وتدريجاً، ومع

صوت واحد كـل حين، نجد صوتاً بشرياً فيـه. إنها لعبةٌ تبهجه. وهو مُتلهفٌ بصورة طفولية إلى أن يريني أنه قادرٌ على محاكاتي، كما يحاكي المخلوقات. بأنـامله على شفتي، وحاجبيه المتغضنين، منصتاً، يكتشـف شكل شفتيـه، والصوتُ ممتازٌ تقـريباً. يـرفع يـديه عـن حلقي، ويضعهما على حلقـه، ويضحك مبـاشرةً حين يحسّ أخيراً بالطنين ذاتـه هناك، ويسمع الصوت، منـدهشاً أول الأمر، كأنــه لم يعرف من أين جاء، ثم مبتهجـاً، مُصدراً الصوت نفسه، مراراً وتكراراً، شاعراً بانتصاره، مع صيحات صغيرة.

بدأت أفهمه. فهو في محاكاة الطيور، ليس مثل مقلّدينا، ينسخون شيئـاً مبينين دقة آذانهم، أو كفـاءة أجهـزتهم الصَـوتية. فهـو، باعتباره الطير، يسمح له بالكلام. خارجاً منه. ولهذا، حين يتعلم الأصوات التي يصدرها البشر، يبرْأ نفسَه بشراً.

الكلام جوهري، لقد اهتديت منـذ البداية إلى الشيء الوحيد القادر على أن يبين له، أيّ نـوع هو. وبـإطلاقه تلـك الأصوات الطنـانة يكتشف حنجرتـه. وبترنمه من خلال منخريه يـدرك أن له أنفاً، وخلفـه تجاويـف يتردد فيهـا الصـــوت وهكـذا، عـن الشفتين، واللسان، والأسنان. وهـو إذ يستكمل المدى الكامل لـلأصوات، فـإنه يستكمـل في رأسه صـورة رأس، مثبتـاً، ومعيداً التثبيـت، بأنامله على حنجرتي، وفكيّ، وشفتيّ، من أنه مخلوق مثلي، وأنه إنسان.

لكن، أيّ رأسٍ ذلك الذي يبدعه خياله؟

ما الذي يمكنني، في النهايـة، أن أوصله إلى تخيّله، ومن ثم، إلى أن

يَكُونه؟ ولو أني استكملت مختبر الأصوات كله، فأي لغَة سأعلِّمه إياها؟

في هذه الأثناء، نبدأ في مهارات يدوية بسيطة. أعلمّه رمي الكرة والإمساك بها. إنه سريعٌ في هذا، وفي كل المهارَات الجسمية، وسرعان ما شرع يدبّر لي حيَلاً، عارفاً أني لستُ لمّاحَ البصر، ولا خفيف اليدين والقدمين، مثلَه. أعلمّه رمي الرمح، ونظم الخيط في الإبرة واستعمالها. وهو نفسه يحاَول الإمساك بقلم والخربشة به. والأغرب من هذا كله أنه تعلمّ الابتسام. ليس أن يضحك فقط من لا مهاراتي وأنا أندفع وراء الكرة، لكن أن يبتسم، كما نفعل نحن، بسبب حالة ما في نفسه، إضاءة مباغتة في روحه، بلا موضوع ولا قضية. كما يتخذ في جولاّتنا دور المعلم، مبيناً لي مسارب في العشب، شارحاً بالإشارة أو بإيماء جسمه، أو بمحاكاة الأصوات، أي طير أو حيوان فعل تلك. أو يجد تحت جذع ملقى يرقانة أو خادرة، ويشرح لي بيديه كيف ستكون فراشةً، ممثِّلاً في نوع من الرقص، تحوُّلها.

كل هذا العالم حيٌّ لديه. إنه منطلق معرفته، نوع من مكتبة أشكال لاحظها واختزنها في ذاكرته، لغةٌ أخرى يعرف أن يفسر رموزهّا ويقرأها. وعيُه هو الذي يقودني في جولاتنا. العالم يتخافق حولنا: إنه مناقع مائية، أضغاث عشب، جذوع مرمية، أغصان. إنه مكتظ بآلاف الأشكال المتغيرة التي تصرخ وتغني وتخشخش وتطنّ، ويجب أن تكون ذهنه، مثل القصائد التي حفظتُها منذ زمن ، مع أسماء آلاف الآلهة وخرافاتها، وقواعد البلاغة ونظرياتها، وحقائق العلم، وحقائق التاريخ، ونظريات

الفلاسفة. الفـرق أن العالم لديه عالمٌ مـرئيّ بمقدوره السير فيه، عالم له مناخاته وفصـوله، ودورة حيواته. إنه يُدخلني في وعيه. وهو ثمت تحت القدمين، وفي كل ما حولي.

كيف أستطيع أن أُدخله في وعيي أنا؟

توصلتُ إلى قرار. اللغـة التي سأعلّم الطفل إياهـا، هي لغة هؤلاء القوم الـذين جئت لأكون بينهـم، وَليسوا هم قومـي. وباتـخاذي هذا القرار، أعرفُ أني اتخذتُ قراراً آخر: لن أعود إلى روما أبداً.

لا شك في أني سأظـل أكتب إلى زوجتي ومحاميّ. بـل سأواصل التـوجـه إلى أوغسطـس، أستجـديــه الصفـح عـن جـرائمـي، واستدعائي. ذلك لأن نصف حياتي أي المتوقع مني، الدراما التي يجب أن أمثّلهـا حتى الاختتـام. لكـن في نصـف حياتي الثـاني، أعـرفُ أنيَ لن أذهـب إلى روما، حتـى لـو جاءت الـرسالـة. وفي الأسابيـع الأخيرة، صرت أدرك، أكثر فـأكثر، أن هـذا المكان هـو المصير الحقيقي الذي كنـت أنشده، وأن حياتي هنا، مهما كـانت مؤلمة، هي قدري الحقيقي الـذي أمضيت وجودي كله في محاولة الإفلات منه. نحن بالكاد نتعرف على البشارة، حين تأتي، معلنةً:

ها هـي ذي الحياة التـي حاولـت أن تنبذ. هـا هي ذي فـرصتك الثانية. هـا هوذا المصير الذي حاولت إبعاده بـاختلاق مائة دور مزيـف، مائة هويـة لنفسك مزيفة. قـد يبدو للوهلـة الأولى مثل الكارثـة، لكنّ الحقّ أنه حـظٌ حسنٌ متنكـر، فالقدَرُ أيضـاً يعرف كيف يتتبع زوغاناتك من خلال ألف شكل له. الآن سوف تصبح أخيراً الشخص الذي قصدت أن تكون.

هكذا أعترف صراحةً لنفسي، بما عرفتُه طويلاً في قلبي. أنا أنتسبُ إلى هذا المكان الآن. لقد جعلتُه مكاني. أنا أدخلُ أبعادَ نفسي.

كيف شرع هذا كله يحدث؟ الأمر لغزٌ لي. قد يبدأ أولاً، في أحلامنا. كائن ما، كنا أبعدناه عن ذهننا، ولم نسمح لأفكاره بالوصول إلى طرف لساننا، يتحرك، ويبدأ بطريقته يعمل فينا. حياةٌ كاملةٌ مخبّأة، تتدفق عائدةً إلى الوعي. هكذا بدأت طفولتي تعود إليّ. ليس كما تذكرتهُا سابقاً، لكن بشكل أصفى، كما كانت بالفعل، وهذا هو السبب في أن ماضيّ، إذ أستعيده الآن، يدهشني باستمرار. كأنه حدث لشخص سواي، وكأنني سُلّمتُ ماضياً جديداً، يؤدي بي إذا تتبعته، إلى حاضرٍ أخرجُ فيهَ من جسمي القديم، ذاتاً جديدةً أخرى.

الأمر هكذا أيضاً، في دروسي مع الطفل. عندما أحاول أن أبينّ ما أعرف، أتعثّر فجأةً، بما لم أعرف، حتى تلك اللحظة. وفي بعَض الأحيان يشتدّ الأمر عليّ، بحيث يكون، هو، المعلم، وأن كل ما يجدُ في المناسبة يكون مستخرجاً، ببطءٍ، وألمٍ، مني.

نحن نتحرك في اتجاهين متعاكسين، أنا والطفل، وإن كنا في الدرب نفسه. هو لم يمسك بعدُ بروحه الفردية من الكون حوله. إن نفسه لتقعُ خارجه، طاقتُها موزعة على الوحوش والطيور التي يشاركها حياتها، بين الورق والماء والعشب والغيم والرعد – وهو في مكانه من وجودها، فهي تمسك، أيُّ واحد منها، بجُزَيء من روحه. وليست لديه أي فكرة عن آخرية الأشياءَ.

أحاول أن أقذف نفسي في وعيه العالم، في وعيه إياي، لكني أفشلُ.

ذهنـي لا يستطيـع أن يحتـويه. أحـاولُ أن أتخيـل السماء بكـل مجموعـات كواكبـها، الكلـب، الـدبّ، التنين، وهكـذا، امتـداداً لنفـسي، وجـزءاً مـن كينونـتي الأبعد، لكـن معـرفتي بـأنها السماء، وبأن النجوم ذات أسماء وتاريخ، تمنع كينونتي السماءَ. يسقط المطـر فأقـول : هي تمطـر: هي تمطـر. ويقصف الـرعد، فأقـول : هي تـرعد. الطفل مغـاير. أحـاول أن أفكر كما يجب أن يكون يفكـر: أنا أمطرُ، أنـا أرعدُ. فيباغتنـي الذعر، كـأني إذ أفقد ذاتي المنفصلة الفرديـة، وأنفضُ آخرها مـن على طرف خنصري، فلسوف أجدني ضـائعاً في تضاعُف الأشياء، ولن أعود البتة إلى ما كنت فيه.

لكني أعـرف الآن أن هذا هـو الطريـق. بطيئاً أبـدأُ المَسْخَ الأخير. يجب أن أطرد نفسي القديمة، وأُدخل الكون فيّ. ستعود المخلوقات زاحفـةً لا محوّلةً كـالآلهة بالسحـر، لكـن كما هي نفسهـا. ذات منقار، ذات فـراء، ذات ناب، ذات مخلب، ذات حافـر، ذات خطم، وسوف تقيـم فينا، مُدخلةً حيـواتها القديمة في وعينا. وبعـدَها، النباتـات، كما هي أيضاً، ثـم نبدأ نستعيد في نفـوسنا البحيرات، الأنهار، المحيطات، الأرض، سهـولها، جروفها الغـابيّة بمَـواثب ثلجهـا. وقليـلاً فقليـلاً، السماء. إن روح الأشياء سيهاجر عائداً إلينا. وسنكون كُلاًّ.

آنذاك فقـط سيكون لنا تصورٌ عـن جسمنا الحقيقي، باعتبـارنا بشراً.

هكذا، يومـاً بعد يوم، وأنا أعلِّـمُ الطفل كيف يضـع الأصـوات مع

بعضها، ويكـوّن كلمات كالتـي يستعملها البشر، يعلّمنـي هو أن أُصْـدرَ أصواتَ الطير والحيـوان. في البـدايـة، كان الأمـر لعبـةً سمحـت بها كـي أداعبـه. وعيـــي لـذاتي، وارتبـاك محاولاتي، أضحكاه، وقد أبهجني هذا الأمر، البـزوغُ المباغت للطفل فيه، كما أن فكرة قيـامنا، معـاً، باللعبة نفسهـا، سهّلتْ عليّ إبقـاءه داخل المهمة الطويلة البطيئة الصعبة التي وضعته فيها.

لكنه في الواقع، المعلـم الأجمل صبراً. أراني الطير الذي أحاولُ أن أحاكي صرخته. وجعلني أمسكُ بـه، مرتعشاً بين يديّ. أنا أعرفُ مقصـده. عليّ أن أتخيـل نفسي في حيـاتـه. وبينما كـان المخلـوق الصغير الناعم يرسل دفئـه فيّ، أغلقتُ ذهني البشريّ، وأنا أحاولُ أن أُطلع منقاراً، أحـاولُ أن أثبَ خارج نفسي، متحديـاً ثقلَ لحمي، وصلابة عظمي، وأتخيلَ ما هـو الإنطلاق من العشب المبتلّ نحو الغيوم. خرج مـن حنجرتي تزمير غريـبٌ، صرخات طير صغير. شبَكَ الطفـل يديه، وأطلق الصـوت نفسه، مشجعاً إياي، مقـرّباً إياي منـه، من السلم الموسيقي البسيـط، كينونة الطير الفـرديّة. والحقُّ أن كل يوم يجعلنـي أقرب. مرةً، في الأيامَ الأولى لعـزلتي، ظننتُ أني قد أتعلم الكّتـابة بلغة العناكب. أمّا الآن، والطفلُ دليلي، فأنا في طريقي إلى ذلك.

أعرفُ الآن، أن اللغـة الحقيقية، هـي ذلك الكـلام الصامـت الذي تواصَلنا به، الطفلُ وأنا، في الغابة، حين كنت نائماً. إنها اللغة التي استعملتُها معه في طفـولتي. وتجيئني ذكرى، مختبئـة ثمت، لكن غير مسموعة بوضـوح، من أحاديثنا الرائعة، تجيئنـي ثانيةً عند

الطرف الأقصى للنوم، لغة يكاد لساني يعيد اكتشافها، وأعتقد أنها سوف تكشف لي أسرار الكون.

يبدأ الفصل يتغير. وحين نخرج هذه الأيام، إلى جزيرتنا في المستنقع، يتعينّ عليّ أن أتدثّر اتّقاء الريح، التي ظلت تهب من الشمال، منذ شهر، مع أن الطفل لَا يزال يمضي عارياً، ويبدو محصّناً ضد الريح والبرد. الظلال تتجمع من الشّجْراء، أبكر فأبكر، كل يوم. الضوء رماديّ. والطيور التي كانت رفقتنا هناك تبدأ الرحيل أسراباً. وكل يوم نراها أقل في الغسق، ونحن عائدان عبر المشهد المائي المنبسط، نسمع الإوزّ، يضربُ جنوباً، في أمواجٍ عظيمة تشق سبيلها في السماء، مالئةً الأعالي بصيحاتها. الوحوش زحفت إلى باطن الأرض لتنام. أحسست بإبطاء في الطفل أيضاً، وأعتقدتُ شيئاً ما، بأن سرّ بقائه الشتوي، سوف يُكتشَف، أخيراً. ولسوف أجده ذات صباح، وقد نأى بنفسه في نومٍ أعمق، كذلك النوم الذي استغرق الأيام الثلاثة الأولى، بعد عثورِنا عليه.

في هذه الأثناء تتحول القرية إلى حصن. الرجال في مجموعات، يرممون الحاجز الدفاعي. وآخر المحصول جُلبَ، وخُزن. والحظائر التي كانت مفتوحة وفارغة، طيلة الصيف، تمُلأ بالعلف، وفي بضعة أسابيع من الآن، سوف تُدخَل إليها الماشية، الثيران، الأبقار، الحمير، الماعز، لتوضع في زرائبها تحت الغرف التي ننام فيها، وحين أهبط صباحاً ستكون أنفاسها الدافئة في

الظلمة هنــاك، ورائحة بولها، وصــوت تمرغها وعلفها. الســاحة ترتفع فيها أكداس الخُثّ المربّعة، والعربات موسوقة بأحمالها في الــدروب بين الأكــواخ، والــرجال -الأطفــال أنصــاف العــراة في الغالب- يصيحــون ويحثّون الثيران كي تصعد التــل عبر الوحل النقيع. نحن مهيأون للإغلاق على أنفسنا في الداخل، ضد فرسان الشمال الذيــن سيظهرون، ثــانيةً، بالتــأكيد، حين يتجمــد النهر، وضد الذئاب. في كل واحد منا هــذا الشعور بالانسحاب في داخل أنفسنا، هذا الالتجاء إلى دفء الجســم ونوره السرّي خارج البرد القادم، هذا الانتقال الأبعد في ذات عميقــة ينبغي ألاّ يمسّها القُربُ المفروض علينا في شهــور الشتاءَ هذه، حين تغلق البلــدة أولاً، ثم بيوتنا، وباستثناء، خطفــات الواجب على الأسوار، سنقضي الأيام والليالي على السواء، محتشدين معــاً، فوق إحدى مدافيء الخُثّ، في الغرفة المركزية الكبيرة، التي تعلــو الحظيرة. الشتاء هنا هو زمن الاستياءات بطيئة الاتقــاد، والشكوك، والأوهام التي تــزداد مع دخول الأيام، أعمقَ في عتمة السنة، ومع اقترابنا من بعضنا أكثر، بسبب البرد، وفي الوقت نفسه، مع ابتعادنا أكثر.

أنا قلــقٌ، على الطفل بخاصــة. إذ عشنا، حتــى الآن، منفصلين عن الأُسرة في البيت الخارجي، منفصلين، لكــن ليس تماماً، فالغــرفة متصلة بغــرف نوم البيت الرئيسية، لكننا قادرون، في الأقل، على الــدخــول والخروج كما نشاء، وعلى رؤية الآخرين أقل، بقدر ما يسمح به صِغَرُ مكاننا.

أدرك الآن، كــم اعتزلــتُ في الأسابيــع الأخيرة، وكــم جعلت مــن

حياتي مـع الطفل، حدود عـالمي المطْلقة. الآن أوشك هـذا كله أن ينتهي. فبيتي الخارجي الصغير سوف يسلـم إلى العناكب. وبعد أسبوع مـن الثلج الأول، يدفَـن بالكـامل. كيف سيتحمـل الطفل وضعنـا، محشـــوريـن في غرفة واحدة؟ هل سيكون مقبولاً من النساء والولد؟

أُفضي بهواجسي إلى ريـزاك الشيـخ، ونحن جـالسـون في ضـوء البـاحـة الأخير، نلعب بلوح خشب ومَرْميّات. هو يربح كالعادة، محاولاً، بفمـه المشدود إلى أسفـل، وشـاربيـه اللذيـن يضربهما بإصبع قصير مكتنز، ألا يبدو معجباً بنفسه، مع أني أسوأ من أن أتحدّاه في اللعــــب. يحاول أن يجد ما يحُيرٌ حيث لا يوجد، يهزّ إصبعه عليّ، ويؤدي نقلَتَهُ.

«لا لا، ياصديقي، يجب أن تثق بي. لن يزعجوا الولد».

لكني غير مقتنـع. وأميل إلى الأعتقـاد بأن ريـزاك، بالـرغم مـن منصبـه كشيخ للقرية، وبالرغم من ممارسته الهادئة لسلطته، فـإنه يمتلـك سيطـرة على القريـة أقل ممـا يـريدني أن أعتقـد، وسيطـرةً أقـل، أيضـاً، على البيـت. إذ وراء امتيـاز الـذكـورة، المؤسّس قانوناً، تكمن القوة المظلمة للمرأة. العجوز أمه، بخاصة، لها هيمنـة غريبـة عليه. إنـه يصيح بها، ومـرةً أو مرتين، رأيتـه يضربها. لكن روحه تستخذي أمامها، وأنـا أشعر بذلك. الكائنات القوية في هـذا العالم، وريزاك يعرف ذلك، وفي منطقـة مظلمة من الإيمان، هـي شيـاطين أمـه، الأرواح القديمـة التـي تغمغـم لها بخفوت، والتي تضحـي لها في ضوء القمر. وريزاك مـذعور من

سحر أمه، كما هو مذعور من الشامان. كل ما يتمتع به، قوة العضل وسلطة القانون.

تظل العجوز معادية ومرتابة. أراقبُ شفتيها تتحركان. وهي تغرف لنا العصيدة في طاسات، وأتساءل إن كانت تكلم نفسها، حسبُ، أو تتمتم رُقىً. شهرتها ذائعة في القرية باعتبارها صانعة سحريّات، ونادراً ما يمر يوم بدون أن تزورها امرأة لتستشيرها حول علامة فراولة، أو شفة شرماء، أو عسر ولادة. بل لقد رأيت، في مناسبة أو اثنتين، شاباً يترصد، متململاً، عند البوابة، وهو يستعد لتسليم نفسه إلى العالم الخطر لسحر النساء، باحثاً بلا شك، عن عقّار حب، أو تعويذة ضد العفن الفطري، أو بَعْر حملانه المبكر. أحياناً نلمحها، وقد خرجنا إلى جزيرتنا، تجمع الأَعشاب. في أجمة الإفسنتين، أو تقرأ رسائل خارج الأماكن المأهولة في حقل يشكل فيه العشب دوائر ليست من فعل حيوان أو إنسان. أعرفُ أنها تتجسس عليّ. وأظنها تعتقد أني ساحرٌ خصمٌ -أهذا ما يعنيه الشاعر لديها؟- يستعمل الطفل ليصنع سحراً مختلفاً أكثر مضاءً. أما تمتماتها على عصيدتها فتعني وسوسة النعمة خارج الحبوب، كي لا تجد أوراحُنا غذاءً فيها. لكنها شديدة الحذر من ابنها، ولهذا لا تمارس السحر مباشرةً، ضدنا.

حليفُها في هذا كله، هو الولد، لولو. أعرف أنه غيورٌ، لأني استبدلتُ به، تلميذاً لي -مع أني عرضت عليه، مراراً، العودة إلى دروسنا. وهو يرفض الاقتراب مني، ويدّعي جهاراً أنْ لا نفع

يـرجى مــن اللغــة اللاتينية أو الـحساب البسيط الذي حاولت أن يتعلمه.

الشيخ يبدو في حــالة يُرثى لها. فهـو من ناحية، يـريد لحفيده أن يكتسب هذه المنجزات، وهو من ناحية أخرى، وبسبب كبريائه، لا يسمــح بأي إشــارة إلى عجزه. يتـوسل إليّ، صــامتاً، ومــلامحه الجلـــــديــــــة مغضّنة في تعبير اعتذار تهريجي، وكرامة مهانة مستسلمة، ألاّ أشعر بـالإهانة بسبب طيّش الولــد، وأن أتعاطف، إن استطعت، مــع صعوبته. يقول لـــ «لولو» إنه جلــف، ويصفع أذنه، لكـن بلطف، مع إيحاء بأنــه حين اختار الجلافة، ظـلّ وفياً لقومــه، وبخاصــة، لجده، غير المتمدن، لكــن، غير الجلف. الـولد يتقبل الصفعة، كما قُصدَ بها، مبتسماً ابتسامةً فاخرةً باتجاهي، ويغادر تيّاهاً.

ريزاك يهز رأســه، ويمطّ فمــه، ويرينــي راحتيه. العجـوز، وقد تمتعتْ بتبرير ممتــان، تطلق صيحة انتصار، وتمضي لتعدّ نقيع أعشاب بالماء المغليّ، ثم تقدمه في تهذيـب لئيم، مبالغ، حتى اضطر ريــزاك إلى القـول إن الشــاي لا يمكـــن شربــه، وإلى التطـويـح بالطاسات ومحتوياتها في الساحة.

فقط، أمُّ الولد، هي أكثر طيبةً مــن أن تتحول ضدي بالكامل. لقد اعتبرتني دائماً، أحمقَ نوعـــاً ما، عليهــا أن تتســاهــل مع ضعفــه الـذكوري. ويعـود عطفُهـا المداعـب إلى أيامــي الأولى هنــا، حين حاولــتْ أن تعلمني أسماء البذورَ التــي كانت تفــرزها، وبما أنها تخاف العجــوز، فهي فــرحة بحضــوري، لأني شــوكةٌ في جنــب

الحيزبـون، هي التي جـاءت بـالماء إلى نبتاتي الصغيرة، وأعترفُ بأنـه عملٌ تخريبيٌ مـن جانـب امرأة تعيش أيضاً في هذا البيت، بفضل تسامحٍ قلقٍ، وترى فيّ شبيهاً لها.

هي تنتسب إلى قـرية نائية، كما أنها مـن رسٍّ مختلف. سيطرتهُا الحقيقية الوحيدة على هذا البيت، وقد مات زوجها، هي من خلال ابنها. والحق أن هذا كان سيحدث، لـو لم يكن ريزاك شغوفاً بها. ولا شك في أن العجوز تعتبر هـذا علامةً أخرى ضـده، واحدةً من تلك النواعم الصغيرة التي توهن بِنية الأشياء.

وقد يكون ضعفاً مماثلاً ذاك الذي جعل المرأة الشابة، بالرغم من تحذيرات العجوز، وخوفها هي، تـأتي أحياناً، وتمد يدها لتلمس الطفل، وهـو منحنٍ على إحدى مشاغلـه. بنعومة، وللحظـة فقط، مدفوعـةً بالفضولً، أو الرقـة، أو بهاجس ما للاتصـال بأي قوة كامنة فيـه مهما كانت –تلمس شعره، وتَرجـع إلى الوراء، لحظةً أحسٌ بيدها. لكن في تلك اللحظة، مهما كانت خاطفة، كانت النظرة على وجهيهما رائعة.

أريد أن أقـول، فقط، إن حيواتنـا هنا، حتى في الانفصـال، موّارةٌ بالتوتر. والشتاء قد بدأ للتوّ.

طوال هذا اليوم، كان ذلـك السكون المتميز في الهواء، ذلك الضوء المريـض الضـارب إلى الخضرة الـذي يعـد بالثلـج. غيـومٌ هائلـة متخثرة فوق البحـر. والحيوانات التي أُدخلـت في الحظيرة، قلقة

عند مَـرابطها، تـرفس وتنفث، أو تغيرّ وجهتهـا، سويـةً. الطفل أيضاً كان راغباً في الانصراف إلى مهماتَنـا. ومثل أي ولد في سنه، يمكن أن يكـون صعباً، وهـو يرصد الأعـذار باستمـرار -جناح رفراف في المستنقع، يرقة تزحـف على جذع- كي يحوّل انتباهي. لكن الأمر مختلفٌ اليوم. عضلاته كلها ظلت متوترة، يقظة، كأنه سمع وقـع خطوة في العشـب وراءنا، وهو عـاجز عـن أن يجعل ذهنه يستقر على الأشياء، ومرة أو مـرتين ينفجر مزاجه بصورة هيّنة، ويبعـد يدي، نافد الصبر، ويشمـخ برأسه كأن اللغـة التي أحاول تعليمه إيـاها كانت تغلق الطـريق على لغة أخرى يجب أن تكون أذناه جد مرهفتين لالتقاطها.

هو في الغـالب مدوزنٌ هكـذا لتقلبات الجو. بمقـدوره أن يستاف تبدلاً في الـريح، سـاعات قبل أن يُـرعشَ النفَـسُ الأول البحر، أو يرفـع عشب المستنقـع. أراه يجلس، فجـأةً، منتصباً في البـاحة، يـرفـع رأسـه، كما في حضور مبـاغـت، ويعـرف أن في الخارج ستتمايل الأعشـاب، في الهبّة الباردة الأولى للريح الجديدة، أو أن أولى خطفات البرق ستلعب في البعيد، على خط السماء الشمالي.

لكن الثلج سقط اليوم، وقد كنا نتوقعـه منذ أسابيع ثلاثة تقريباً. الرجال في الحصـن يقومون بالاستعـدادات الأخيرة. على امتداد البطيحة الـرمادية يختلج السكـون، كأنّ وتراً قـد أُرِنّ. كل شيء يدندن حنوناً.

في وقت مـا، بين منتصف الليل والفجـر، أيقظني ضوء غـريب في

الغرفــة، زرقة غير طبيعية، تنبض، ليست البتة مثل ضوء القمر. الباب إلى الكوخ مفتوح، وموضـعُ الطفـل في الركن فارغ. نهضت سريعاً، وداهمني الخوف.

لكنه لم يكن هرب. في كل انبهار الضــوء الآتي من الثلج الذي كان يسقط، لا محالة، منذ ســاعات، فهو عميق، يقف عاريــاً في الباحة (ينام عارياً، حتى الآن، بينما بقيّتُنا تتدثر بالفراء) ويبدو لي أنه لا يزال نائماً –إن له نظرة الغشية البعيدة التي يتّسم بها السائرون في نومهم، الـذين حتى لو مروا بك، في ممــر، أو على سلّم، يبدون بعيديــن غير قابلين للمّس، كأنهم كـانوا يتحركون في عــالمٍ آخرَ، حاضر، في آن، منفصــل عن عالمنا، لكـن ليس بجدران، إنــهً يقف منتصبّاً ساكناً، وجهه مًرفــوع إلى السماء الزرقاء زرقة ساطعة، ليس زرقة الليل ولا النهار، زرقة تغني، إنها صافية جداً، طاهرة جداً، وهكذا لونها بالمطْلق.

إنه يقف هكذا، ساكناً، في البرد، والضوء يَصّــاعد من الثلج، قرابة ســاعــة. أنا أيضــاً مرتعبٌ مــن إيقاظــه. حين بدأت أولى الــرقائق تسقط ثانيةً فتح فمه لها، وفرك وجهه، وكتفه، وصدره، ثم رفع يديه ورأسه عالياً، كي يسقط الضوء مباشرةً عليها.

أصدرُ صوتاً خفيضاً، تحريك قــدمين، ربما، فأنا أيضاً كنت أقف ساكناً في البرد، خائفاً من أن أتحرك كي لا أربكه.

يستدير ويستيقــظ فجأة. يبتسم. يطلق صيحــة. ويشرع يتقافز على الثلج، قاذفاً بحفنات منه إلى الهواء. يبدو أنه لا يشعر بالبرد. جسمه محافــظٌ على لونه، يداه وقــدماه ليست متقلصة. وعنــدما

جاء مندفعاً إليّ مع قبضة من الثلج المسحوق، شعرت بالدفء الذي يشعّه، جسده يتّقد، إنه فُرن. أراني الثلج، كأنه شيء من عالمه الخاص ذلك الذي لم أكن رأيته، قط.

لكنني حين أحاول إعادته إلى الغرفة، يقاوم. لم أعرفه يوماً عنيداً فجأة، هكذا. أرتكبُ خطأ الإصرار. فيهجم عليّ. باصقاً. ممزقاً قبائي، ويركض إلى سور الحاجز الدفاعي، يخمش اللوح الطري محاولاً تسلّقه. وحين أحاول أن أهدئه يدفعني عنه، ويبدأ يعوي.

إنه العواء القديم من أيامه في الغابة. إنه يعوي، خامشاً السور مثل حيوان، باصقاً كلما اقتربتُ، مكشّراً عن أسنانه، متوتر أظافر اليدين كالمخالب. خلفي، النسوة، وريزاك ينظر مذعوراً. والولد النعسان، يفتح عينيه واسعتين، كأن إحدى حكايات الشيخ القديمة جاءت، فجأة، حيّةً في الباحة.

أنا على حافة الدمع. لا شيء يمكن عملُه. أنتظر، مع ريزاك، الطفلَ يُنهك نفسه. تهاوى أخيراً عند السور، مدمّى الأظافر، وأحسستُ بالشفقة عليه، وبشعور بالذنب، مفاجيء رهيب، لكنني لا أستطيع أن ألمسه. كل هذه الأسابيع كنت أتبع خطتي لِلطفل، ولم أفكر لحظةً به، إلا مخلوقاً طوع إرادتي، هيأةً في حلمي. الآن، وهو يركع في الثلج، عاوياً، ممزقاً وجهه بأظافره، أمتلكُ تصوراً لانفصاله المطلق الذي يُرهبني. ليس لدي أي فكرة عن الألم الذي يعانيه، وأي إحساس عميق بالفقدان والحرمان تعبر عنه صرخاته. أخيراً، حين هدأ العواء، وانحسرَ في نحيب واهنٍ

وطفـولِيّ، حملناه إلى حشيّتــه، وتمددت لصقه، والبــاب مغلق، في الظلام، حتى أنامه النحيب.

يبدو في الصباح، أنه لا يذكر شيئاً مما جرى في الليل. إنه يراقبني من الزاوية، ألفُّ فراشي، وأجمع لوازم كتابتي، موساي والطاس، أتهيأ لمدة فصــل، بُغيةَ ترك هـذا المكان، أي مكاني -مكـاننا- إلى الغرفـة المشتركَة فوق الحظيرة. أُطَمْئِنُـه بالإشــارات على أني لن أغـادر بدونــه، وأشجعــه على جمع حاجيـاتــه. كما هي: الـرداء الخشن الذي يرفض ارتداءه، كرته الملـونة. لكنه يبدو عاجزاً عن الاستيقاظ الكـامل. يراقبنــي وأنا أكنــس الغرفة، وأقــول وداعاً للعناكب، ثم أردُّ الباب ورائي.

في نهاية الأسبـوع سوف يـدفن الثلج كـوخنا، وبعـد ذلك، حين يتجمـد، لن يكـون بالمستطـاع دخـوله، إلا مـن خلال السقــف. وبطيئـــاً، مـــع ممتلكاتنا كلها، نصعد السلّم داخل الحظيرة، إلى الغرفة العليا.

4

حلمنا الشتوي يبدأ.

سنتي الخامسة في هذا المكان، وما زلتُ لم آلفْه. يأتي يوم ويمضي آخر، والضوء الرمادي هـو نفسه على المستنقعات. تثلج. تتجمد. تثلـج ثانيـةً، الـريح تهبّ مستمـرةً مـن السهوب. الهواء داخـل غرفتنـا كثيف بـدخان الخُثّ الـذي يحترق تحتنا. النـوافذ تظـل مغلقة معظم الوقت اتقاء الريـح، ويمكن فتحها فقط في تلك الأيام الغريبة السـاكنة ذات الصقيع المطلق حين تتحـول السماء زرقاء جليدية، والعالم كله يحبس أنفاسه، ويلتمع أزرق، ذهبياً، أبيض، كما لو أننا دخلنا، فجأة، في أرض جديدة. وإلا فإننا نتكوم هنا، في نصف العتمة، ننصت إلى الريـح تصفر في العشيّات، ننفض كتلاً من الثلـج في صوت ثقيل، ننصت إلى المصـاريع الخشب تقـرقع وبلورات الثلـج تصلصل، ونحمي أنفسنـا من الهبّـات التي تجد طـريقهـا إلى الـداخــل مثيرة دوامـات صغيرة في الهواء المثقـل بالـدخان. أكتـبُ في ضوء شمعة خفّـاقة، وعليّ أن أحميهـا بكفي المكوّرة كي لا تطفئها دفقةٌ مباغتَـة. أنامُ طويلاً، ربما بسبب ثقل الهواء، أو بطء الدم في البرد الشديـد، وربما بسبب الضجر، لكنني أجدني أنوسُ برأسي في ساعات ما من اليوم، وأبدو دائماً نعسانَ مثقل الرأس، وأتساءل، كم ساعـة من اليوم أقضيها نصف نائم، نصف حالم؟ أثنتي عشرة ساعةً؟ خمس عشرة؟

الأيـام المتماثلـة، تمر سريعـةً، وتمضـــي إلى النسيـان المطلـق، كالليالي. أســبوعٌ يمرّ، ثلاثة أسابيـع، خمسة. فإن لم يحزّ المرء عــددهـــا على عصاه، أو يدونه في رقٍ، فإنه لا يكاد يعرف أنها جاءت وانصرفت.

أنا أقيس الأسابيع بعدد نوبات الحراسة التي أؤديها. كل ليلة من خمس أخرجُ أربع ساعات لأحرس السور، أخطو صاعداً هابطاً على متراس خشب، تماماً تحت القمة المدببة الأعمدة للحاجز الدفاعي، مع عشرين رجلاً. في الليالي الصافية تكون الدنيا جميلة:

القمر مرتفعٌ بين الغيوم، وبطائحُ النهر مزرقّة، يتخللها ظلٌ ثقيل، الريف كله مفتوح إلى مدى ما تراه العين، على امتداد الطريق إلى النهر. في مثل هذه الحراسات تستطيع أن ترى الذئاب تتحرك في جماعات على الثلج، وبإمكانك سماع عوائها إذا كان السكون كافياً. أحياناً يأتي ذئبٌ وحيدٌ عند السور تماماً، ومرة أو مرتين تظهر مجموعة كاملة، مكشرة عن أنيابها، مالئةً الهواء بعويلها، حين تشمّ رائحة الحيوانات في مَرابطها. والثيرانُ والحميرُ إذ تسمع عواءها، تطلق بدورها خوارها ونهيقها المضطربين. لكننا في معظم الليالي لا نقوم إلا بالخطو، صاعدين وهابطين في الضباب المدوّم حولنا مثل بحر، نتحرك كالعميان، ويدٌ واحدةٌ ممتدةٌ أمامنا، على المشى الضيق. هكذا تكون الساعات الأربع مثل نوعٍ آخر من النوم. لا شيء تتركز عليه العين، وكلُ صوت خامدٌ. إنّه لنومٌ رمادي، بلا أحلام، يوجع الركبتين، ويُضيّقَ الجمجمة، وأعاني صعوبة كبرى في منع نفسي من الوقوع في نومٍ حقيقي، وبالتالي من السقوط إثني عشر متراً في الوحل المتجمد.

في هذه الأثناء، سقط الطفل في حالة اللامبالاة، فهو يجلس ساعات لا يفعل إلا التحديق في الظلام. كوعاه حول ركبتيه، وحنكهً هابطٌ على قبضتيه المضمومتين. لا يزال يتسارع في لحظات. متْلِعاً رأسه لهبوب الريح ثانيةً بعد توقُفٍ، أو متشمماً

فجـأةً حين تتحرك الغيـوم الثلجية فـوقنا، وفي فترات السكـون المضيء، حين يمكن فتح النـوافذ، يغدو مجنوناً بـالفرح، يثب على عقبيه عند حافة النافذة، مُصدراً أصوات أنّات صغيرة، مثل جرو أُطلق من مقْوده. لكنه، في الفترات الطويلة، حيِّن نكون محتبسين، بسبب الضَباب أو الثلج، أو قسوة الصقيع، يغـرق ثانيةً في كآبته القديمـة، التي لا يقدر أن يخرجـه منها شيءٌ. يـأكل حين يوضع الطعام أمامـه. لكنه لا يهتم الآن بألعـابنا الكلامية، وأخشـى أنه سوف ينسى معظم ما تعلمناه. حين حـاولت مرةً أن أعيد صلته بإطلاقي صيحةً كان علّمني إياهـا، أصابته هيستريا شديدة. كل ما فعلته محاولتي الخائبة مـن صيحة الطير أنها ذكّرتْه بمكان في المستنقع الـذي لم نزره، منـذ ثلاثـة أشهر أو أكثـر، وأنا أدرِك، متـألماً، أنه لا يفهـم، ولا يمكنه أن يفهـم، لماذا لم نعـد نذهـب إلى هناك، ولماذا انتهت ألعابنا. أيعتقد أني أعاقبه؟

في ليلة صافية، حين فتحنا النوافذ، حاول أن ينقذف خارجاً، لكن كان عليّ أن أتصـارع معه، عند حـافة النـافذة، بينما هو يـرفس ويطلق صرخات حيوانيـة حادّة، أقنعت العجوز ثانيةً بـأنه ليس طفلاً، بل هو وحشٌ متنكرٌ شقّ طريقه بيننا.

العجوز تراقبه دائماً، مرتعبةً كما أعتقـد، من أنه قد يمسك شيئاً، وعاءً ما، وبـذلك يكتسب السيطرة على مستعملي الـوعاء. والحقٌ أنه في سـاعاته المديدة مـن مجرد الجلوس، والتحديق أمـامه، لا يبدو، بأي حال، طفلاً طبيعيـاً. وحين يهمهم في حلقه، أو يئنّ، أو يعوي قليلاً في ألمه، أبدأ حتى أنـا أتساءل عماً إذا كان روحُ حيوان ما، يعـود بين حين وآخر، زاحفاً فيـه، روحٌ أسعفه هناك في غـابةً

الشتـاء. لقد ظـل حياً، آنـذاك. فهل يستطيـع أن يظل حيـاً الآن؟ أراقبُه ينسحـب أكثر، كل يوم، إلى مســافة غير مرئيــة، إلى وجارٍ سريٍّ، تهجع فيه روحه، فلا يمكن أن تُستدَعى.

أنظر إليه أحياناً، فتتكون لـديّ فكرة واضحة عماً يفعل. إنه يرى نفسـه في الحلـم، خـارجاً، في عـراء الشتـاء. وإني لأراه، بـرهـةً قصيرةً، يتحرك على الثلج الناعم بين أشجار البتولا، يعلك سيور اللحاء، ويركع ليقتلع أشنـةً. ألمس كتفه فلا يشعر بشيء. العينان الســوداوان غائرتـان في محجـريهما، تنظران عبري، إلى حقـول الجليد الباهرة تحت الريح. وعندما يتسارع، لتغير في الجو، فإنما لتغير، كما أرى، في المشـهد الـذي يتحرك عبره، في رأســه، ولو أني فكـرّت أننا قـد نجـده ثـانيةً في الـربيـع، إذاً لأطلقتُـه. لكن هـذا مستحيل. إذ لا عـودة بعد أن جئتُ بـه بيننا. إنه يفقـد، فعلياً، في دفء هذه الغرفـة قدرته على مقاومـة البرد. ومنذ أسابيع تـدثّر، مثلنا، بغطاء جلـديّ. سوف يتجمد هناك في الخارج. لقـد انتزعتُ منه سرَّه، مهما كان هذا السرّ. إنه الآن ضعيـف المقاومة، معرّضٌ مثلنا، وهـو يُظهر في ذلك، على الأقل -حتـى لو كانـت العجوز لا تراه- أنه بشرٌ، أخيراً.

وكبرهان على مـا كنت أدركتُـه للتوّ، أصيبَ الطفـلُ بالحمّـى. هو جـالـسٌ، كعادته، ساحباً ركبتيه إلى أعلى، ومحدّقاً، وفجأة رأيته ينطرح، ويتمدد مغشياً عليه، لكنـه استيقظ حينَ اقتربتُ لأغطيه، وبدأ، مباشرةً، يرتجف. قطرات عـرق كبيرة انبجستْ من جبينه، حتى صار شعره يَقطرُ، وجسمـه كله يتفصّدُ عرقاً. وبين فترات

الاحتراق، يتجمد. أعتقد أنــه لم يعرف، قطُّ، من قبـل، ما يعني أن تبرد. كـامـل جسمــه يُطبـقُ على هـذا الإحســاس الجديـد، هـذا الاكتشاف داخل نفسه عماً يعنيه الشتاء، وما معنى أن يكون ثلجٌ وجليد، وشعـور المرء بأنه يـدخل ملكـوتاً من البرد المطْلـق، ذلك العالم القطبي في تخوم الجسد. سحب ركبتيه إلى أعلى، منغلقاً على نفسه. تـوترت كـل عضلة في أطرافــه وكتفيه ورقبتــه، وأطبقت كفّاه، وانطبق فكّاه. إنه يبدو مرتعباً، وعندما بدأت الخضّات، كان عليّ أن أمســك بــه، مقحماً قبضة سكين بين أسنــانــه، بينما هــو يختضّ، ويتصلّب، ويـدخل في سلسلة كاملة مـن التشنجات، ثم يسقـط منهكـاً، في نـوم همود. العرَقُ ثــانيــةً. وحين رفعتُــه بين ذراعيّ، وحــاولت إقحام بضعّ قطـرات ماء بين شفتيه، تـذكرت أخي، وأدركت من يعني لي هذا الطفل، وما يّعني لي أن أفقده.

العجوز تراقب من الطرف الآخر للغرفة. أعرف ما تفكرُ فيه. هذه ليست حمّى عاديّة. الطفل يتصارع مع شيطانه، الروح الحيواني الـذي حماه هنـاك في الغـابة، والـذي يُصـارع الآن ليعـود. وإذ أستنجدُ بها، طالباً دواءً ما. بعض الأعشاب التي تجمعها وتصنع منها جرعات، تهزُّ رأسها، وتدير إبهامها إلى أسفل، وهي تبصق. كان عليّ أن أّمسك بــالطفل ليل نهار. لو فكرتْ حتــى للحظة، بأن الــروح قــد تنصـهر وتدخل جسم الطفل ثانيةً، لقطعتْ عنقّها. أنا أعرف ذلك.

لكن المرأة الشــابة، ذات الطفـل، والقلب الحنــون، لا تستطيع أن تتحمل رؤيــة الطفل يـذوي، ويعرق، ويــرتجف، ويختضّ تحت الأغطية. تأتي لي، سراً، بطعام له، وماءٍ نظيف.

أسمعُ العجوز تنــازعها، وأعرف ماذا تقول. مــاذا لو تخلى الطفل عن الصراع، ووجـدنا أنفسنــا حبيسين هنا مــع الذئب الأبيـض العملاق، الذي هـو عشيره، والذي قد يفلح في أي لحظـة، في مَلء جسم الطفل، ثم في الخروج منه، وهــي تعتقد أن الحمّى َجزءٌ من التحول المؤلم. دم الطفــل يغلي ويتجمد، كأنه يتغير قطـرةً قطرة. معدة الطفـل تنكمش طلبـاً للّحم النيــيء، طعام الـذئب اليومــي. وأطرافُــه تتوتر لتكون مخالــب. وفكاه تطبقان على الأنيـاب التي تنمو. ومــاذا لو لم يكـن ذئباً في النهــاية؟ بل وحشاً آخر، أضخم وأرهب مما يمكن أن تتخيله حتى هي.

المرأة الشابة تجبُــن، وأرى شكّاً جديداً قد بُذر في ذهنهــا. ماذا لو صَعُــبَ على الوحــش قهر الطفــل، فاختــار جسم ابنهــا، بديــلاً؟ سيكـون الأمر في غــاية السهـولــة. بينما نحن نــائمون جميعــاً، وأجسامنا فــارغة في الظلام، تنسلُّ روح الطفل خــارجةً، وتقطع الغرفــة، وتدخل جسمَ ابنهــا –وهكذا يتمُّ الأمر! ليـومين كاملين ترفـض المرأة الشابــة الاقتراب منا. إنها تــراقب الطفــل، تراقــب ابنها، تُبقــي الولـد بعيداً عــن زاويتنا مــن الغرفة قدر المستطاع، بينما تهمس العجوز، وتخفق بيننا.

لكن في الليــل البهيم، حين تبلــغ حمّى الطفل أزمتهــا، وأُضطرُّ إلى طلب المعونــة، فالمرأة الشابة هي التي تتحــرك في الظلام، وتلتفّ بعباءتها، وتأتي بالماء. أنا متعبٌ جـداً، ومنهك. وبعد خمسة أيام تقريباً من المراقبــة، أبدو دائماً على حافة الدمع. يــداي ترتعشان كثيراً بحيث لا أستطيع أن أرفع الطاس إلى شفتي الطفل.

تتناوله مني. تـركع. ترفع رأس الولد، تـاركةً إياه يعبُّ البرودة، وعندما تعيد رأسه إلى مكانه مـن كومة الخرَق التي كنت جعلتُها وسادةً، تجلس مروّحةً عليه، بينما أستريح أنا، لحظةً، مستنداً إلى الحائط، وأنام عندما أستفيقُ ثانيـة، أراها لا تزال ثمت، ووجهها فقط يتبـدى من طيّـات العباءة. تجلس بـانتصاب كـامل. يـدها تتحرك وراءً وأمـاماً لتعمـل نسمةً. تحنـي رأسها، مشيرة إلى أن بـاستطاعتـي النـوم ثانيةً، وعلى الفور أسقطُ من جديد في أعماق جسمي.

في الضوء الصباحيّ الأول، المتسلل عبر شقـوق النافذة، أستيقظُ لأجدها تمسك الطفل في إحدى نوباته. تبدو خائفة، وأنا أعرفُ أن هذه هي اللحظة الحقيقية للأزمة. وأعرفُ أيضاً ما تخافه.

جسـم الطفل يختـضّ، يـرتخي، أطـرافه تطير، فكّـاه ينطبقـان وينفتحان، أصواتٌ حيوانية غريبة تخرج منهما. أسمعُ الآخرين يتحـركون، وأرى العجـوز تخرج من الظـلام لتراقـب، والولـد ينهض نعســان خلفها. الطفـل ينخر، وتخرج زمجراتٌ خفيضـة من حنجرته. لســانه يدور، ويسيل اللعاب من زاوية فمه. شفتاه تتحركان.

وفجأةً، وبكل وضوح بحيث سمعناها جميعاً -أنا، والمرأة الشابة التي تشهـق بغتةً، وتـدفعه عنهـا، والعجوز التـي تطلق عـواءً- واضحـــةً، من شفتيه، وسط كل زمجرة الألم الحيواني وأنينه، تجيء كلمة، واحدة من الكلمات التي كنت أحاول تعليمه إياها كلّ هـذه الأســابيـع. لقد اكتشفها أخيراً في هذيانه. وقد صعدت إلى

سطح ذهنه. لقد اكتشف لسانه كيف يُصْدرها.

إنها كلمة عادية تماماً، وليست ذات أهميـة. كلمة شائعة من حياة هؤلاء الناس اليوميـة. لكن التأثير كان فورياً عليهـم. ومن فرط فرحـي باكتشافـه إنسانيته أخيراً، أفشلُ في معـرفة ما أنـذرهم. المرأة الشــابـة تنهـار أرضاً، وتبـدأ تتراجـع. العجـوز تمدّ يـداً لتأخـذها، واليـد الأخرى خلفها ممسكـة بالـولد. التصقتـا معاً والولد بينهما، يحدق، بينما أصعّدُ نظري من الأرضية إلى جانب الطفل، عاجزاً، لحظتها، عن الفهمَ.

إنــه ما تـوقعتـه العجـوز. في أعماق حمّاه، وعند نقطـة الأزمـة، اختطف الطفـلُ روحاً أخـرى. والدليلُ على هــذا، نطقهُ المفـاجيء هكذا، كلمةً في لغتهم.

إلى الولد «لولو» تستديـران الآن، فهو الذي تكلم، دون أن يعرف، مـن فم الطفـل. العجـوز تبدأ، فـوراً، تُعْـولُ عليه، شــاتمةً المرأة الشابـة التي هجرت ابنها، لتعتنـي بمتطفلِ، وإذ اعتنت بــه حتى الأزمة، أمكنـت الشيطان، مـن أن يسرق، ولَو للحظـة فقط، روح ابنهـا. المرأة الشابّـة لا تنبس بكلمــة، خوفـاً. تترنح عَلى الأســل، ممسكةً ببطنها، تصدر غماغم من حلقها بلا كلمات، كأنها توشك أن تمرض. الولد يشرع يئـن، والعجوز تمزّق عنه ثيابـه بحثاً في جسمه عن عـلامات، إشارات، موضع ربما دخـل الشيطان منه. بعد ساعـة، حين عادَ ريزاك مَن واجـب الحراسة، كانت الغـرفة تغلي. المرأتان كلتاهما في هستيريا، والولد ممددٌ على حشيّة، يَعْرَق

مع الهجمة الأولى للحمّى، بينما الطفل، وقد انتهت أزمته أخيراً، يتنفس هادئاً وينام.

ذهني في دوّامة من هذا كله.

في أي لحظة تالية قد يغمرني الفرح لما قد حدث. الطفل تكلم أخيراً. في هذيانه اكتشف الكلام البشري. لقد اتخُذت الخطوة الأولى التي سوف تؤدي به، لا محالة، إلى عالم البشر. لو أن هذا حدث قبل ستة أسابيع أو سبعة، هناك في المستنقعات، لتهللتُ فرحاً. أنا الآن أعي، فقط، الخطر الذي وضع نفسه فيه. تلك الكلمة الأولى، التي طلعت من أعماق نفسه في النوم، بينما كان ذهنه، روحه، بعيدين جداً في الثلج العميق لغابته. تلك الكلمة قد تدمِّره.

إنه لا يحس بأي خطر. تنفُّسه يأتي ناعماً بين شفتيه وهو ينام. لكن الخطر حقيقي، وأنا لا أجرؤ على تركه، ولا أسمح لنفسي، أن أسقط، حتى للحظة، في جوع جسمي أنا إلى الراحة.

المرأتان في زاويتهما المقابلة، مشغولتين الآن إلى حد أنهما لا تعيراننا انتباهاً، تُعْوِلان على جسم الولد، الذي يمكن سماع أنينه، خافتاً، بين انقطاعات عوائهما. إنه في المراحل الأولى للمرض نفسه الذي أصاب الطفل. أنا أعرف الأعراض. كيف أُصيب بالمرض؟

تتبادر إلى ذهني نظرة الذعر على وجه الولد، الرعب من حضور شيء مجهول، بينما كانت يدا العجوز تمزقان ثيابه، باحثتين في جسمه عن علامة انتهاك. هل أخذ المرضَ

آنذاك؟ مصاباً بخوفهما، وجاعلاً إياه خوفه؟

من يدري بأي وسائل غامضة يسير الجسم إلى نهاياته؟

قبل سنين، وفي رحلاتي بآسيا الصغرى، جئتُ إلى مدينة حلّ بها الطاعون. صدمتني آنذك، العشوائية التي كان يتقدم بهًا الوباء، كيف يظهر في بيت، مُفْنياً كل ساكنيه، إلا طفلاً واحداً يظل معافى. ثـم يقفـز بيتين ليختار ضحية أخرى. وصرتُ أعتقدُ، حينها، بالفكرة القائلة: إن كان الطاعون نفسه، يتحرك مثل سحابة فوق المدينة، فلا بدّ أيضاً من وجود ظل للطاعون يحيا في الجسمً أو في الذهـن. ولا يندلع المرضُ إلا إذا التقـى الإثنان، وعـرف أحدهما، الآخـر. وإلا كيـف تفسرّ أن شخصاً يصـاب بـالمرض، والآخـر، الجالس إلى جانبـه، أو النَائم في الفراش نفسه، لا يصـاب؟ وماذا يمكن أن يكـون ذلك الظل الـذي ينام في الجسـم، سوى الخوف؟ الرعبُ هوالصلة. يتفصّد الجسـمُ عرقَ الخوف، وفي رطوبة ذلك العرَق، يبدأ الطاعون ينتشر، كل قطرة تتحول وتغدو عَرقَ حمًى. وما يبدأ في الذهن يعمل الآن في الجسم. وهكذا، مرةً، رأيت المرض يُنقل في المسرح. كـان ممثل شهير في أنطاكيـة يصوّر الألم الأخير للبطل الـذي أصابته حمّى مميتـة بعد أن أهـان الآلهة، وقد أدى الممثـل دوره بمهـارة فائقـة، مـؤثـراً تـأثيراً شديـداً في أذهـان الجمهور، بـاستعادتـه الممتازة، الاحتراق، والاختنـاق، وبُرَحـاء المرض، حتى أن نفـراً من المشـاهديـن، أصيبوا بـالمرض نفسه، بسبب رعبهم وإثمهم، وسقطـوا عن مقاعدهم متفصّديـن عرقاً، فتعَينّ حملهـم إلى خـارج المسرح. لقـد انطبـع مـا شـَاهـدوه، في أذهـانهم، بحيث أن مجرد التظـاهـر بـالمرض، في جسم الممثـل،

تواصل مـع أجسامهم، وصار حقيقـة. إن روح الممثل، في تـخيُّلها المرض، أثَّــرت بقـوة في أرواحهـم، بحيـث سمحــت للمرض بالدخول، ففاضت سمومه، فوراً، في عروقهم.

أهكذا تنتشر مثل هذه الحّميات؟ أهكذا كـانت عدوى الولد؟ لا من خلال رغبة الطفـل في تحرير نفسه ودفع المرض عنـه، وإنما من خلال الخوف، محمولاً في ذهن أمه، ومطبـوعاً في ذهنه هو بسبب ذعر العجـوز المفاجـيء، ومعبرّاً عن نفسه، فـوراً، عَرَقـاً، ونـاراً، ونوبات يعانيها الآن. إن نقطة اَلعدوى كانت لـحظة مدّت العجوز يدهـا لتلمس المرأة الشابة حين أجفلـتْ مرتعبة من كـلام الطفل، واستدارت صـارخةً نحو الطفل النعســان خلفها. في هذه الصدمة الأولى لصرخة العجـوز، أخذَ المرضَ، وانفتــح جسمه ليتلقّــاه من يديها، عبر يـدي الأم، من الطفـل. خارجـاً من أذهــانهم داخلاً في ذهنه. مـع أن العجوز تعتقد، وأوحـت بذلك إلى المرأة الشــابة، أن روح الطفل فعلتْ هذا كله، خبثاً. أمُّ الـولد هي التي نقلت المرض، من خلال ضعفها وشفقتها. وهي عندمـا تحولت للعناية بالطفل أسلمتْ حياة ابنها إليه. وسمحت لروح الموت بالمرور بينهما.

وهكذا، ســاعة بعد ساعـة، يغرق الولـد «لولو» أعمق في هــذيان الحمّى، صــارخاً، متمتماً، مطْلقاً من بين شفتيـه صرخات الأنين والـزمجرة الحيوانيـة التـي كَان الطفـل مـلأ بها الغـرفة طيلـة الأسبوع الفائت، متصــارعاً، كما تعتقد المرأتان، مـع ذلك الروح الحيواني نفسه، الذي سوف يستعمله ثانيةً ليدخل بيننا.

في هذه الأثنــاء كان الطفـل، وهو لا يـدري بهذا كله، يـزداد قوة.

اليوم جلس، أضعف من أن يسند نفسه، لكنه قوي بما يكفي لأن يأكـل. إنه يبتسم. حتـى ريزاك يـراقب تماثل الطفـل إلى الشفاء بعينين ضيقتين، وإني لأرى فيه خوفاً حقيقياً مما يمكن أن يكون الطفل سبّبَهُ لهم، مـع أنه مثل المرأتين، أشدُّ قلقـاً وتمزقاً بالـحزن إزاء معـاناة حفيـده، من أن يفعـل أكثر مـن التحديـق والحيرة. مشاعـره متعلقة تماماً بـالشخص الشاحـب الصغير الممدّد على الأسل، وهـو يعصر يده في نوبة بعـد نوبة بينما الحمّـى تنتقل في مراحلها بين النار والجليـد. فقط حين تأخذ منه الحمّى مـأخذها تتحوّل صدمة الشيخ إلى استياء منا وغضب. لخمسة أيام وليال يجلس على الأرض بجانب الطفل، منحني الكتفين، متجهم الوجه، يبتلّ خدّاه بالـدموع حين يئنّ الولد. أعرف مـا يشعر به، لكنني لا أستطيع أن أُبدي له إشارة. أحاولُ أن أجعل نفسي غير مرئيّ هنا، وآخذ الطفل معـي. المرأة الشابة، أمُّ الولد، هـي أشد ذهولاً الآن، وانصعـاقاً بـالحزن والشعور بـالذنْـب، من أن تفعـل أكثر مـن الجلوس مغطّاة الـرأس، محدّقةً في الولد، متمنيـةً له أن يعود إلى الحياة. العجـوز هي التـي تهتَمّ بـه. أعرف، لـو أن الطفل مـات، فسوف تنفجر كـل هذه المشاعر المحيطة بنا، في عمـل عنيف ولن أستطيع آنذاك أن أفعل أي شيء، حفاظاً على الطفل، وعليّ أنا.

أنتظـرُ، نصـف نـائم، اللحظة حين ستـأتي -صرخـة الغضـب الشنيعة التي سوف تُخترق الشيخ وتجعله يهجم علينا، والعنفُ الذي يخضّ الولـد الآن، سيندفع هائجاً من خـلال جسم الشيخ ليوجه ضربته إلينا، إلى الطفل أولاً، ثم إليّ، لو حاولتُ حمايته.

لكن، وفي مثل المعجـزة، تمرّ الليلة الخامسة، وينجو الـولد. ومع

الصباح سمعتُ العجوز تُطلق اصوات قَرَقها الصغيرة، مكلمة الولد، كما لو كان يستطيع السمع أخيراً، وموقظةً ريزاك الذي كان شبه نائم، متهدل الرأس، مع انه في الجلوس يظل منتصب الجسم. أمُّ الولد تقف، بطيئاً، على قدميها، ناهضة من موضعها عند الجدار، حيث كانت منبوذةً لخمسة أيام. يشْبك ريزاك يديه ويطلق هتافات ارتياح عالية، ساخراً من الولد، ربما لما سبّبه لهم من قلق شديد، ويأتي على الفور، إلى وسط الغرفة، مبتسماً ابتسامةً عريضة وملوّحاً بيده لي. لقد ذهب كل غضبه واستيائه. يقطع الغرفة إلى النافَذة، ويرفع الرتاج. ضوءٌ ساطع يغمر الغرفة. إنه احد تلك الأيام البيض الصافية، حين يكون الريف كله مرئياً، يلتمع، أبيض، تحت سماء زرقاء. كان الاندفاع المفاجيء للهواء البارد في الغرفة رائعاً.

ريزاك يتمطى، يطلق هتافاً ثانياً، ويمد ذراعيه واسعتين إلى السماء، ثم يعود مترنحاً إلى الغرفة، يتمدد على كومة من الأسل هي فراشه، ثم يسقط، فوراً، في أول نوم حقيقيّ عَرفه منذ اسبوع. أمُّ الولد تنام أيضاً، متمددة على الأرض بجانبه. العجوز فقط، التي لا تتعب، تظل تنعق على الولد، مقدّمةً له فُتاتاً من صحن، ضاحكةً مع نفسها بين وقت وآخر، بل مناديةً إياي، مرةً أو اثنتين بالرغم من أنني لا أعرف ما تقول في دَرَدها.

لقد مضى الخطر. تخطّيناه. فجأةً تذكرتُ كم أنا متعبٌ. غمرتني موجة كبرى، وبدون أن أزحف حتى ثلاثة أقدام إلى فراش الأسَل، تركت نفسي أغرقُ ثانيةً تحت فيض الضوء الآتي من النافذة، وأنام.

نحن الآن عبرنا الأسوأ. الانقلاب الشتوي جـاء منذ وقت طويل، ومضـى. وقد دخـل ظلام أحلـك وقت في السنـة، وبلغ نهايتـه، والأرض تميل بعيـداً نحو النور من جـديد، وأحسُّ بمعنـوياتي ترتفع مع تطـاول الأيام. والآن، تفتح فترات الجو المنير الهادئ، الريف كلـه أمام عيوننا، البحر يلتمـع، وأوائلُ الطيور تعود. وفي الليالي الهادئة، يمكـن سماع جليد النهر، وهو ينطحـن في الظلام. بل أننـا نستطيع أخيراً الشروع في التنقل حـول البيت. أهبـطُ مع الطفل إلى الحظيرة، ونجلس هناك مـع الحيوانات، نسمعها تجأر وتنخر في نصـف العتمة، متحركةً، مجترةً، متبرزةً أكـوام روثها متصاعد البخـار، الذي يعطي المكان رائحة حرّيفـة، تبدو أفضل من الهواء العطن في الغـرفة العليا، ونحسُّ بدفئها وهـي تلتمُّ مع بعضها عند مَـرابطها. بدأت الحيوانـات تفقد هدوءها، مستـافةً الربيع. بعد اسبوعين أو ثلاثة من الآن، حين يُزاح الجليد، سوف تؤخذ ثانيةً إلى الحقول. كل يوم يشتغل الرجال، كاسرين ممّرات في الجليد، جارفين بعيـداً أقدام الثلج التي تغلـق الدروبَ الضيقة بين الأكواخ، منظفين البـاحات كـي يمكن الـوصول إلى البيـوت الخارجية من جديد.

•

حتى بيتـي الصغير بدأ يظهر فـوق مستوى الثلج. وسرعـان ما سنكــــون قادرين على الانتقال عائدين إلى هناك، أنا والطفل، ولسوف تستأنف حياتنا القديمة. ثم، بعد شـهر أو نحوه، سوف نعود إلى جزيرتنا في المستنقع، إلى الطيور والفراشات ويُسروعات الربيع، وإلى الحروف السـاكنة، وحروف العلة، التـي كاد الطفل ينسى معظمها، إذ مرّ زمنٌ طويلٌ على مراجعاتنا لها، مع أني وقد

نطق بكلمة أخيراً، أعـرفُ أن بالإمكان العثور عليهـا هناك في قاع ذهنه، أعرفُ أنه في جزء سريّ من كينونته، أعمق حتى من النوم، بدأ يتكلم مع نفسه، وبالتالي سوف يتكلم معي، يوماً ما.

نحـن ننـزل كـل يوم إلى الحظيرة، لأن الغـرفـة نفسهـا لم تعـد محتملـــــــة. نحن هناك للعذاب فقط. لأن ريزاك مسؤول عني، حسبُ.

سلطته على البيت اهتزت عميقاً، بسبب أحداث الأسابيع الأخيرة. فالعجوز هي التي تتحكم، إذ أن سحرها هو الذي أنقذ الولد –هذا ما تخبره– وأن ثقتـه الحمقاء، وشفقـة المرأة الشابـة، هما اللتان عرّضتاهـم جميعاً للخراب. والولـد هو حفيده الوحيـد. وريزاك يراقبه الآن بشعور متســارع بأنّ الولد عرضةٌ، كما هـو عرضةٌ للزوال. وصار يـدرك أيضاً أن قوة ذراعيه لا تستطيـع أن تفعل الكثير، مثل ما لم تستطع، في لحظة الأزمـة. كأنما وجدت العجوز سبيلها أخيراً إلى تسميم روحـه، واسترداد قوته الرجـولية التي وهبته إياهـا يوماً، والتي كـانت طوال هذه السنين كلهـا مصدر تفوّقه عليها. وهناك لحظـات يبدو فيها طفلاً بين يديها. وأن المرء ليميّزُ في وجه العجوز عداءً حقيقيـاً لهذا الرجل ذي الستين الذي كانَ سيّـدها طـويلاً، والـذي كان في مـا مضـى رضيعـاً، وتحت سيطرتها تمامــاً. ويختلط مـع العداء شعورٌ جـديد بـالانتصار. البيــت ممتلىء بتــوهــج سحـــرهـــا، رائحــة أعشــابها، جرعاتها وصلواتها اللامنتهية ذات العبارات المرتعشة.

عندما يكتمـل البدر سوف تقدم أضحيةً في غيضــة النساء خارج

القريـة، مقدّمةً الشكر، لحيـاة الولد. يخرج ريزاك وحـده ليأتي بـالضحية، َجـرو بريّ، سـوف تحُرَق أحشاؤه على مـذبح مـن الخُثّ، وتقدّم إلى هَيكات الثـلاثية. توسل الـولدُ كي يذهـب معه، لكنـه رفـض. سـوف يـؤخــذ الجرو مـن بين الكـلاب البريـة، الهجينة-الـذئبية، التـي تجوس في مجموعـات، خلال منخفـض الشجيرات بظاهر القرية، والتي تطعَمُ، بـاعتبارها مقدسةً أيضاً، الفُتـاتَ، أحيانـاً، مـن المتـاريس. إنها مخلـوقـات هـزيلة لـونها رماديّ-أسـود، وكلها أضـلاع، وتتقاتـل، منقضّةً في أكوامٍ على قطع اللحم والشحم الزنخ، ثم تنسلّ إلى الدغل.

يعود ريـزاك بالجرو في سلّة قصب صغيرة. ولعشرة أيـام، حتى اكتمال البدر، ظل يعـوي في زاوية الغرفة، مصـدرَ عذاب حقيقي للطفل. أستيقظُ في الظـلام، لأسمع بكاءً ناعماً ظننتـه بكاء الطفل نفسه، لكني أجـده منحنياً على السلة في الظلام، مجيبـاً صرخات الحيـوان بأنّـات صغيرة حادّة. وقـد واجهـتُ صعوبـة كبرى في إعادته إلى حشيّتّه. وطوال الوقـت كنت أحسُّ بالعجوز، منتصبة المجلس في زاويتها، وأتخيلُ ابتسامتها الخفيّة.

هـل يعرف الطفـل، المقصود؟ وهـل جـاءته العجـوز بالمخلـوق الصغير إلى هنـا، عمداً، ومبكـراً، فقط لتكـوّن هذا الاتصـال بين الإثنين: الطفل وضحيتها الحيـوانية؟ هل الطقس الـذي تتهيأ له، رقيةٌ ضد الطفل، أكثر مما هو تقديم شكر لحياة الولد؟

مع اقتراب الموعـد، يغدو الطفـل مهتاجـاً أكثر فـأكثر، حتـى لقد خشيـتُ أن يسقط ثـانيـة في حمّاه. إن نـأمةً مـن الجرو تجعلـه

يرتجف الآن، فـإن منعتُه الـذهابَ إلى السلّـة أجابَ المخلـوقَ من بعيد، مُصْـدراً كل سلسلـة أصوات الأنين، التـي يطلقها الجرو، فتضّحك العَجوز رأسـاً، ضحكتها التي تشبه النعيـق. هل يحسّ الحيـوان بما سيحدث؟ هـل أوصلَ هـذا إلى الطفل؟ أم أن الطفـل منزعجٌ ولسبب بسيط هو وجود حضور في الغرفة لروح صغير، شيء هو غير حضـورنا البشري؟ أم أنه أَحـسّ في كُربـة الحيوان فقدانَه هو حـريته؟ أم أنه التألق المتزايد للقمر ليلـةً بعد ليلة؟ منذ أسبـوع والجوُّ صاف، ونحـن ننـام تاركين النـوافـذ مفتوحـة، وضوء القمـر الذي يدّخـل الغرفة يمنح أشيـاءها المألوفـة زرقةً شبحيـــةً، ضوء القمر إذ يضرب الثلج، مكوّناً ظلالاً كثيفةً تكاد تُلمَسُ باليد.

أخيراً حلّت الليلة.

المرأتان تخرجـان بعد طلوع القمـر مباشرة، مصطحبتين الـولد، وريـــزاك يحمل السلة إلى بوابة الباحة، ثم يتسلق السلّم عائداً، ويقترح عليّ إحدى لعباتنا باللوح والمرميّات.

من النافذة، أراقب موكـب العجوز، وهو يمضي في الدرب الضيق، وتنضمّ إليـه أخريـاتٌ في مسيرته. نساء القـرية، كلهـن، سوف يجتمعن أخيراً في الغيضة ولا يُسمح لأي رجل بـرؤية طقوسهن. إنها لشعـائرُ القمر، تعـود إلى عـالم سلطة المرأة، وعبـادة المرأة، وهي أقدم وأكثر غموضاً من عالم الرجال.

يبدو ريزاك، ونحن نلعب، غير مرتاح. وقد كسبت اللعب. المرأتان تعودان صامتتين، ولا تزالان ملتفتين بقوتهما التي منحها القمر،

مهما كانت، هـذه القوة التي تتسلط شهـرياً على دفق جسميهما، تكبر، وتنحسر، وتترعـرع على العتمة، محوّلـةً كـل هذه الأشيـاء التي نعـرفها في ضـوء النهار، بنـوره الأكثر نعـومةً وغمـوضاً. ريـزاك ينسحب إلى حشيّتـه، على الفور تقـريبـاً، وبدون كـلام. صمتهما يضطهده. أمّـا الطفل الذي لم يقم بـأي حركة منـذ أُخذَ الجرو من الغرفة، فهو يجلس في زاويته، منحنياً، غارقاً في إحدى انجـذابات جسمـه، ويـرفض أن ينـام. أحسٌ طوال الليل بغربة تخيم علينا، بتغير قـد يكون سببه البدر، أو أنه منبعـث من يقظة الطفـل الحالمة، أوّ من العجـوز، فقد ظلـت طوال الليـل جالسـةً، متّسعة العينين، لا ترى، والبدر يسقط عليها، مغلغلاً قوّته عميقةً فيها، تُطلق بين حين وآخر تنهّداتٍ كبيرة، كأن مخلوقاً أقوى كان يتنفس من خلالها بانتظام.

في الصباح، كان في الغرفة نفَسٌ أكثر غرابةً وحدّةً.

لقد أصيب ريزاك في الليلة الفائتـة بمرض ما، ليس كالمرض الذي أصاب الطفلين. جسمه، ملتوياً، وجائشاً في نوبات عنيفة، يتعذب، وينشف، ويفيض. وإذ تفحصـه العجوز ترى هناك تلـك العلامة ذاتها التي توقعتْ أن تجدها، نصف دائرة من آثار أسنان صغيرة على رسغـه، مندملـة الآن تقريبـاً – إنه اَلجرح الـذي دخّل منـه الوحـش. تُطلق العجوز صرخـة حادّة، وترمـي يديها في الهواء، وتبدأ مباشرةً، العويل على الميت.

هذا ما كـانت طقوسها، البـارحة، تريد أن تتفـاداه. ولقد أخفقت الطقوس. وبعد هذا كله، لم يكن الولد هو المهدد، لكنه الشيخ. كان

مرض الطفل تحويل انتباه. الآن، تكتشف، حقاً، أن الطفل هو الذي أنزل شرّه بهم. لقد تركه الروح الحيواني أخيراً، ودخل في الشيخ الذي تخرج من شفتيه نقطٌ بيضٌ كالزبد الذي يُطلقه حصانٌ أرهقه الركوب الشديد. الهدير والزئير الحيوانيان اللذان ينفجران منه، يكاد الشَعر يقف منهما، بينما هو يذوي ساعة بعد ساعة، وثمت بقبقة في حلقه، ودمدمة لم أسمعها من قبل، وتبدو بعيدةً قروناً عن الكلام البشري. وبين هذه الفترات من السُعار، يتصلّب، أطرافُه كلها تتوتر ضد ما يخرج من خلاله، الوحش الذي يولد فيه، طالباً أطرافَه الأربعة المُشْعرة، وخطمَه ذا الأنياب، وفكيه المطبقين على اللحم النيء للأشياء. النهَاية محتومة، وواضحة هكذا منذ اللحظة الأولى لظهور الشرّ. حتى أنا أرى ذلك. الأمر مثل كابوس، كأننا انجرفنا جميعاً، وفجأة، في دراما جسمه، في عمليتها الرهيبة، نقل طاقته البشرية إلى شكل حيواني. للكابوس قوة دفعه الذاتية، وقد أخذنا معه كأننا كنا مشاركين فجأةً في الحلم نفسه، مستيقظين سويةً في نومنا لنكتشف أن الغرفة أمست قفصاً، وأن الهواء ذاته كان عنصراً حيوانياً نتقاسمُ نفَسه، نتانتُه هي نتانتنا، ودمدماته هي محاولاتنا الخانقة لأن نصرخ ونصدم أنفسنا ناهضين.

استُدعي الشامان، لكنه أيضاً أقرّ بهزيمته. نظرة واحدة إلى الوجه الرمادي الذئبي للشيخ ويجُفل مرتعباً يهزّ رأسه، ويهرب مع سحره قبل أن تنتقل إليه هو أيضاً، العدوى.

جرى هذا كله، مفاجئاً، وكاملاً، إلى حد أننا بقينا مذهولين،

عاجزين عن إعادة أنفسنا إلى الواقع. ولخمسة أيام يستمر الصخب. روح الشيخ تُصارع وتتلوّى، كأنّ قوّته لا تُنهك. وعندما تحاول المرأة الشابة أن تبلل شفتيه بالماء، تصدر منه اختناقةٌ رهيبة. تصرخ العجوز إنهُ الوحش يحاول قول اسمه -الوحش المجهول الذي أرضع الطفل كل هذه السنين، وتركه الآن، يولد من جديدٍ، في الشيخ.

يهدأ الشيخ أخيراً، في اليوم الخامس. السكون المباغت بعد ساعات السُعار تلك، سكونٌ مرعبٌ. نحن نحبس أنفاسنا.

إنه ليس ميتاً. نحن نعرف ذلك من ارتفاع أضلاعه وانخفاضها، لكن الوحش الآن، في لعبة جديدة. عينا العجوز تجوسان، باحثتين عن نفَس هواء ما يتحرك حولنا، كي يكشف حضوره، لكأنه يمشي في الغرفةً على أربع، هكذا كنا نحسّ، مع اقشعرار جلدنا، وملمس فروه علينا وهو يمرّ. لكن لا صوت. لا حركة. شهيقنا وزفيرنا فقط. الطفل يتشبث بي، ويبدو كأنه يوشك أن يدخل في إحدى نوباته. عينا العجوز تظلان تجوسان في الغرفة، ويداها ماثلتان في الهواء، منشورتي الأصابع. الدقائق تمرّ. الساعات. نحن متجمدون. أشد رعباً من أن نتحرك.

البقية أيضاً جرت كأنها في حلم: نقلُنا من الغرفة، دخول الرجال الذين سيقودون روح ريزاك خارج البيت، فراري مع الطفل من خلال السقف، وهبوطي في عتمة بيتي الصيفي، المحاصر بالثلوج، حيث أستطيع الإنصات منه، إلى ما يحدث في الباحة.

نسوة القرية، أو من يمكن أن يتحشد منهنّ بين أسيجة الحسيكة، تجمعن هناك كي يطردن الأرواح الغريبة، المترصدة خلف حدود المنزل بالضبط، لتخطف روح الشيخ، وهي تعبر في الهواء، إنهن جالسات على الثلج، متدثرات بعباءاتهن، ومنقّبات، بحيث لا تبدو إلا عيونهن، يتمايلن أماماً وَوراءً، على عجيزاتهن، ويقرعن معاً، بصوت موحد يصمّ الآذان، الأحجارَ المقدسة التي انتُقيت من قاع النَهر، لبَياضها ونعومتها، والتي لا تُستعمل إلا لهذا الغرض، كي تصمّ آذان الأشرار عن صرخات الشيخ، وهكذا فإن الصرخة الأخيرة، صرخة الموت، سوف تمر بدون أن ينتبه إليها أحدٌ، فتنسل روحه في الليل.

يبدأ القرع، سلسلةً من الإنفجارات الحادّة، تمُلأ فراغاتها بعويل مرتفع وثلاث صرخات مثل صرخات الصقر. وعندما تتسارعَ الوتيرة يغدو القرع غير منتظم. لكن، مهما كان الوقع غير مألوف عند الآذان الأجنبية، فإن كل الأحجار تهوي في وقت واحد، وعندما ينفتح الإيقاع على تعاقُب متزايد، تشرع الأصوات في أوم، أوم، أوم رتيب، ويتكرر المقطع الأصلي الواحد، باستمرار، كأن الأرض نفسها تتكلم من صدعٍ ذي عدة افواه.

في طاسات فخّار صغيرة حول الباحة، يتصاعد دخان أعشاب، لم أشمّه من قبلُ. دخانٌ يدخل المنخرين فيدوّخ المرء. بياض الجدران، سوادُ الأشكال الذ ي ملأ كل مكان، الأيدي المائة المتحركة في آن، اللحن الرتيب، قرقعة الحصا - هذا كله يخلق نبضاً في الرأس، يهدهد الحواس، ثم يخُمدها. أجدُ نفسي مجلوباً

إلى اتساع الضوء وانكماشه، إلى الأصوات وهي تضرب أذني، كأنني في دوزنة نفسي، ونبض قلبي، لهذه الإيقاعات، كنت أُسحَبُ، ببطء، وأُفرَدُ وأُنثَرُ، مَنفصلاً عن نفسي، وعن إرادتي الفردية.

في أعلى البيت، يقام احتفالٌ أخيرٌ، غير مسموح لنا برؤيته، ويُقصَدُ بفوضى الأصوات هذه، التغطية عليه. أنا أعرف ما هو. حكماءُ القرية يجُهزون عَلى حياة ريزاك بالقوة، يضربون ويهزون النفَس الأخير، ليخرجوه من جسده القوي العتيق، كي يموت ريزاك مُقاتلاً. أما انحطاطه إلى حالة من الضعف الطفولي فسوف يجعله عرضةً للشياطين التي تحوِّم هناك في الظلام، لتخطف روحه بعيداً. إنه لَيُضرّى حتى الموتَ. بهذه الطريقة فقط يمكن رفع روحه المحتضرة إلى هذه الدرجة من العنف، حتى يجبن أهل الظلام إزاءها، فيمكن لريزاك أن يعبر، بلا مضايقة، إلى الهواء.

هذه العملية تستمر، ربما، لساعة. وفي النهاية، يبرز أحد الشيوخ عند نافذة، ويرفع ذراعيه. وعلى الفور يخيم الصمت. الأيدي تتوقف في منتصف الحركة، والطنين ينقطع. العجوز فقط، أُمّ ريزاك، تطلق صرخة طويلة، نغمةً منفردة تحافظ عليها حتى انقطاع نفسها، ثم تتلقفها أخرى أصغر سناً، ويستمررن هكذا، يطلقن الصرخة، يمضين معها، ويتبدّلن. بينما في داخل البيت ، يشرع الرجال يرقصون، يدقّون الألواح الخشبية بكعوب جزماتهم. إنه السهر. سيظل شيوخ القرية يرقصون ويشربون الشراب المخمّر حتى يسقط آخرهم في ذهول كالميت. ويترنحون، ضاحكين، متفكهين مع بعضهم، كأنّ موتاً لم يكن، وهم

يخرجون من البيت، إلى الثلج، حيث يبولون عند جدار، سكارى إلى حدّ أن منهم من لا يستطيع الوقوف على قدميه وحدَه، فيتعينّ عليه أَن يسند نفسه بيد، ويحاول باليد الأخرى أن يرخي سرواله. شياطين الهواء أيضاً موضوع هذا كله. الشيوخ يحوّلون انتباه الشياطين، وفي هذه الأثناء يشقّ أحدهم طريقه إلى أرضِ المدفن، هناك على الهضبة العالية. قد تكون روحه وصلت، وهي تدور راكبةً، الدائرة الكبرى في الظلام. وبعد يومين، سوف يحملون الجسم إلى الخارج كي ينضمّ إلى الروح. الآن، تتكأكأ النسوة على الثلج، وينتظرن. وبعد أن يسقط آخر الراقصين، سوف يزحفن إلى داخل البيت، وينقلن الرجل الميت، حتى يمكن غسله وتهيئته للخوزقة.

في خضمّ هذا كله، وضُحَ لديّ ما يجب أن أفعله. مع موت ريزاك، وبهذه الصورة، لم تعد لنا حماية هنا، أنا والطفل. لقد نسونا في هذا الوقت. طقوس الموت، والانشغال بالشياطين المنتظرة، سمحت لنا بالتسلل بعيداً. فيما بعد، فقط، حين يكون آَخر الطقوس قد تمّ، سيفكر أحدهم -ربما العجوز- بالانتقام، ويتذكر أن الطفل هو الذي سبّبَ كل هذا، وإياي، أنا عشيره، العارف أو غير العارف.

أوقظُ الطفل قبيل الفجر. المرأتان الآن ناعستان، ملتمّتان بعباءتيهما، ورأساهما مغطّيان، ومن السهل الانسلال حولهما، والخروج إلى الزقاق.

الطفل لا يزال نصف نائم، لكننا إذ نبلغ حدّ المناقع والجسر إلى

جزيرتنا بين القصب، يمسك فجـأة بيدي، ويضحك، ويثب وثبةً صغيرة، ويحاول أن يسحبني نحوهـا. هو يعتقد أننا بعـد حوالي أربعـة شهور نـوشك أن نعـود، أخيراً، إلى حياتنـا السالفـة، إلى دروسنا اليـومية في المستنقـع، إلى نداءات الطيـور، إلى محاولاته المرتبكة في أجهزة حلقـه، بُغيةَ نُطق الحروف الساكنـة وحروف العلّـة، هـذه المختبئـة هنـاك منـذ زمن طويل، والتي أحاول أن أساعده في العثور عليها. وقد استاء حين جعلته يفهم أننا سنمضي في سبيلنا.

إنـه يبدو فظـاً، يمـطّ شفتـه السفلى، ويضرب صدري بقبضتـه المضمومـة - ليس بشـدّة، لكن تعبيراً عـن استيائه منـي. يشيح بوجهـه عني، ويشرع يئـنّ. ضوءٌ شاحـبٌ يغمر المستنقـع كله، بمخاضـاته ذات الماء الآسن، وأكـوام الثلج المزرقّـة تحت ضوء القمـر. القصب يُصدر حفيفـاً. والقمـر ينـزلق داخـل الغيـوم وخارجها. الطفل يحنّ إلى ضوئه في الأرض الصلدة الآمنة خلفنا، وعليّ أن أمسك بقبائه، وأخيراً، بيده، لأقـوده. ربما أنذره شيء ما في تصرفي، أن الأمر ليس لعباً، وأن رفضي دخـول الحياة السالفة ليس محض رغبةٍ منـي. هو يتبعني، متباطئـاً قليلاً، ونمضي عبر المناقـع نحو النهرً، الذي أعـرف أنه يقع في مكـان ما، شمالاً، على مبعدة يـومين أو ثلاثـة، سيراً على الأقدام، مخترقين أرضـاً يثقل فيها السير، إلا أننا لن نخلف عليها آثاراً لاجتيازنا.

خطّتـي أن نعبر النهـر، وهـو لايـزال متجمـداً، ونهرب لنلـوذ بالسهـوب. إنهـا خطـّة متهوّرة، لكنـي لا أستطيـع أن أفكـر بغيرهـا. شيء فـي أعماقـي يخـبرني باتـّباعها، وبأنّ هـذا

الاتّباع كان مقصوداً على الدوام.

أفكر بـأحلامي. بكل تلـك الليالي حين اتخذتُ طريقي خـارجاً إلى هناك، في النوم، لأنبـش في الثرى، باحثاً عن قبري. وبـذلك الحلم الذي لاقيـتُ فيه فـرسانـاً كالآلهة. أنـا خارجٌ الآن إلى المجهـول، المجهول الحقيقـي، حيث لا تُعَدُّ توميـس، مقارنةً بـه، إلا مخفراً أمامــياً لــرومـا، منحطّــاً، وأعتقد أنني أمضي في الممرّ الواضح لقدَري.

أن أتقدم دائماً هكذا، ووراء ما أعـرف لا يمكن أن تكون تخومٌ - وإلا، فكيف ينبغي أن تكون حياة الإنســان؟ وبخاصة حين يكون شيخاً، حُـرِّرَ، بضربة حظ واضحـة، وبعنف، من الأمـان المريح الذي يجعل الشيوخ سعداء للغرق في العمى، والصمم، وشلل كل رغبة وإحساس. كيف ينبغي أن تكون الحياة، إن لم تكن سلسلة مستمرة من البدايات، من الانطلاقات المؤلمة في المجهول، سائرين من حدود الوعي إلى سرّ ما لم نَصرْهُ بعدُ، إلا في الأحلام التي تهبّ من هناك، حـاملةً ضوءَ الجُزر التي لم نبصرها، بعـدُ، في ساعات يقظتنا، كما في الرحـلات البحرية أحيانـاً، حين تأتي أولى أغصان المرفـأ القادم، مـرتطمة بـالسفينة، حتـى في الظلام، قبل أن تبرز الأرض الحقيقية للقائنا.

صرت أكثر شجاعةً في شيخوختي، مستعداً، أخيراً، لكل التغيرات التي يجب أن نمرّ بها، عندما نسمـح، وبألم، لأطرافنا، أن تنفجر في شكـل جـديـد، ونترك أديم جلـدنـا يتكسر، لتطلـع الشجـرة، وتغادرنا الفـراشة أو الطير نحو الهواء. وهل يعنـي الموت سوى

الامتناع عن النماء ومعاناة التغّير؟ هاأنذا الضعيف السخيف، قد نجوت. أنـا آخر شعراء عصرنـا، لا أزال موجـوداً، لا أزال أعمل، حتـى في الصمـت. وإن أراد شيوخٌ آخـرون أن يغـادروا سريـر موتهم ويغامـروا في المجهول، فماذا يريد أكثر، ذلك الـرجل الذي كانت حيـاته كلها تمريناً على المغـامرة، حتى في سكون حديقته؟ أعني الشاعر.

وهكـذا نمضي متعثريـن، الطفـل وأنـا، نحو ذلـك القـوس المائي الغامض الـذي عرفت اسمه طوال حياتي، بـاعتباره يعينّ حدود عالمنا الروماني، والـذي أعطاني مقطعاه، إسـ – تير، دائماً، حتى أيام كـانت هـذه الأفكار مجرد انغماس رومـانسيّ، ارتعاشــةً في أعماقي، أُريد أن أجعلهـا فعليةً، أخيراً. إسـ – تير. لقد كـان هناك على الـدوام، في نـوع مـن الانتظار، حتـى حين رأتـه عينـاي على الخرائط، بـاعتبـاره الحدّ النهــائي لحيـاتي، ينتظـرني لأعبره، صبوراً عاماً بعد عام، يـريد وصولي. ومهما ابتعدت خطاي عنه، في الواقع، وفي الـذهن، فقد ظل يحرّك أمواجـه، يتجمد كل فصل، يتكسر، يفيض ثانيةً، هامساً لي:

أنا الحدود التي يجب أن تتخطاها
إن أردتَ أن تجد حياتك الحقيقية،
موتك الحقيقي في النهاية .

كيـف استطعتُ أن أحـزر الأمر، أنـا النـائم مرتـاحاً في سريـري الصغير ذي الدواليـب، بـ «سالمو»، أنـا الابن الثاني المدلـل لمالك أرضي غنيّ؟ ماذا عليّ أن أفعل بهذا النهـر الأخير للعالم المعروف؟

أنا الذي أكتـب قصائد رومانسية متغـربة في حديقة بـالعاصمة، متخماً بالطعـام، ثملاً بالخمر والكـلام، أعرضُ خرافـات مسرفةً عـن المجهـول، ما حـاجتـي إلى سماع مـدِّه في مكان مـا، عميـق، بمؤخـرة رأسي، يطحن جبال جليـده، يشقّقَها، وينـدفع بأميـالهَ الألف نحـو البحر؟ الآن، أخيراً، وفي الضوء الأول لصبـاح شتاء متأخـر، عند حافـة الربيـع، أمضي في طريقي إليـه، عبر المستنقع الباهر، حـاملاً معي طفلاً لم أكـن أتوقع، البتة، أن أجـده ثانيةً في نقطة النهايـة هذه لحياتي، ومتوقفاً، حتى وسـط أمواه المستنقع الواسع، لأنصبت إليه، لصوت هديرٍ في مكانٍ ما وراء الأفق هناك، حيث تدور طيور البحر.

حلّـت الساعـة أخيراً. بعيداً نحـو الشمال، وعميقـاً في المَعاشـب الممتدة حتـى القطب، يقع المكان الـذي طالما حلمت بـه في سنوات منفاي هذه، سائراً في منامي تحت الغيوم العالية المضوّأة بالقمر. الأرض التي سأدخلها غير أليفةٍ، إطلاقاً.

وهناك، بعد كل هذه الفصـول، النهر. إسـ – تير. هذان المقطعان السحريان ولـدا من أنفاسي. النهر، جامداً، صُلباً، ينتظر، في هذه الأيام الأخيرة قبـل ذوبانـه وتدفقـه ثانيـةً، أن أعبره. وبينما أنا والطفل نعبره في ضوء القمر، كانت الضجّة تصمّ الآذان، الهديرُ، والتكسرُّ، وانطحانُ بيـاضه تحت أقدامنا. وفي منتصـف العبور، بعيداً في متـاهته المتألقة، لا نستطيـع أن نرى شيئاً، لا الشـاطيء الذي خلّفنـاه، ولا الآخر الـذي يقع في مكـان ما، أمـامنا. وأخيراً، وعيناي نصـف مغمضتين إزاء الضوء البـاهر، أُميِّـزُ خطاً معتماً

رفيعاً أفقياً، حيث الأرض تعلن نفسها صلبةً، من جديد.

في موضع من منتصف عبورنا، شعرت بخوف بارد من أنه قد لا يكون ثمت شاطيء آخر، وأن إستير قد يكوّن بلّا ضفة على الناحية الأخرى، نهراً يتجمد ويفيض عند الحدّ بين الأرض والهواء، وأن كل تلك القصص عن المَعاشب، وفرسانَها العمالقة، هي أضغاث أحلام، حتى حين جاؤوا، مرعدين، عابرين جسر الجليد، وحمينا حصننا المحاصر بالثلوج، ضدهم.

لكن الأرض مستمرة. حتى وراء إستير. ثمت عالمٌ آخر.

لقد بلغنا الشواطيء، ونحن نتهيأ للدخول.

5

لا مزيد من الأحلام. لقد تجاوزناها ،ودخلنا في الحقيقة الأخيرة.

المَعاشب، وقد لمسها الربيع لمستَه الأولى، تتموج وتترقرق كالبحر، حتى أن التغلغل فيها، والسباحة أحياناً في العشب الذي يُطاول الصدرَ، يجعلان المرء يحسّ بأنه يطفو، ولا يمشي، بلا معالم، على مدى ما ترى العين. فوقنا، اتساعٌ لسماء زرقاء، ليس فيها سوى غيوم صغيرة، عالية، مثل سقف.

أمّا هناك، وراء النهر، في الشجْراء، فإن ندرة ما تتركز عليه العين، تُعتبر حرماناً للروح، وقد أمضيت وقتي كله أحنُّ إلى شيء يكسر خطّ السماء، مثل صنوبرة رشيقة داكنة في وطني، أو شجرة كستناء تنسكب الشمس فيها، لتغدو كلُ ورقة كبيرة، شفافةً، خضراء مضيئة. هنا، الاتّساع، الفراغ، يَغذُوان الروح، فلا تجوع إلا لمزيد من الفضاء، لمزيد من الضياء – كأن المرء لمح، فجأةً، اتساعَ روحه وفراغها، فتصالحَ معها، ممجِّداً، أخيراً، حريتَها المفتوحة.

وهكذا يتحرك المرء هنا، كأنه في جو آخر. وكأن الهواء نفسه مختلفٌ، أخفُّ في الرأس، مثل هواء الجبال، أحياناً، عند القمم. حتى عظامي تبدو أخفّ، ومع أني متعبٌ أكثر من التعب، بسبب هذه الأيام الطويلة من الصعود شمالاً في السماء، فإن جسمي لا يشعر بأي وجع، فقط بنوع من الضآلة يعود إلى الجسم نفسه. أُحسُّ أحياناً بأنني كنت أتقدمُ على مستويين مختلفين. أرانا، كما من علو شاهق، شكلين صغيرين يشقّان الأرض المعشبة في خطّ باهت نتحركُ من خلاله، مثل سبّاحين، ومن ذلك العلوّ يكونُ تعب الجسم مثل لا شيء. الوجع الطبيعي موجود، لكن لا يمكن

الإحساس بـه عبر مسافة كهـذه، كالصرخة المنطلقـة في البعيد لا يمكن سماعها. الروح تمارس ما يفعلـه الجسم لكن بشكل آخر. إنها لا تتقـدم فـي خـطّ مع الجسـم، شمالاً، قـاسمـةً ضـوء الأعشاب. إنها تتوسع، لتكّون المشهـد كاملاً، كأن الفضاء نفسه أبعادُها، مـالئةً الأرضَ بأسرها، من أفـق إلى أفق، وقوس السماء بالكامل، سيماؤها الآن، الهواءُ الأنقى، والعدد الهائل من جزيئات النور، وكـل جُزَيء مـركزٌ صغيرٌ، يمكن منـه الإمساك بـالكل في نظـرة واحدة، ومـن مـوضعه الأسمـى، في الأعـالي، أرى هذيـن الشكلين الضئيلين يزحفان، وهما الطفـل وأنا. من موضـع بعيد أمـامنـا، أرانا نقترب. من موضع مسافة يوم كامل، خلفنا، أراناً نبتعد.

في المساء تتحـرك ظلال كبيرة على التلال، هـابطةً في التجـاويف، ومعمقـةً المنحدرات، اللطيفـة بما يكفـي حين بلغنـاها. في الأيـام الساكنة، لا صـوت إلا للأجنحة، ولرفيف الحشرات حـولنا وهي تتجمع عنـد جذور العشـب أو ترفـرف في الهواء. حين تهب ريح الشمال يكون التجمد، وتنقع الأرض. آنذاك نزحف هابطين، مثل الحشرات، تحت الجذور، ونترك البحر العظيم يطـوينا. لكن حين تهبّ ريح الجنـوب يكون الدفء مـع أنفاس الربيـع الأول. ومن الآن، في كل مكان حولنا، بشائر الـربيع زهور بريّة صغيرة تبرز، عميقـاً، في العشب. يـرقـانـاتٌ يجمعها الطفـل ونغتـذيها، أوائل الطيور العـائدة أسراباً إلى رؤوس الأعشـاب الناضجـة – سحبٌ عظيمة من الطيـور طافية في السماء، وهابطة مثـل غيم منخفض على الأعالي، مندفعة فجأة أمامنـا في شكل قمْعٍ كأنها منزعجة من تطفلنا على كونها وهي تتغذى.

إنه عالم الطفل أخيراً. إنه ينغمر فيه مبتهجاً، ويسحبني بعده، وفي كل الجهات يجد مسرّات صغيرة يثب إليها مثل أشياء ضاعت ولم يتوقع، البتة، أن يجدها ثانيةً. يجلب لي بيض طيور، ويقدمه لي، بلطف، على راحتيه، مشيراً إلى البُقع، ومُطلقاً صيحات صغيرة كي يخبرني لأي طير هذا البيض. وفي بعض الأحيان، ومِن قبضة ست بيضات أو سبع، يقدم لي واحدة لأمتصّها، ناقفاً كل بيضة بساق عشب، من طرفيها، ويريني كيف يسحب ما بداخلها من نعمة. يَعطينّي بذوراً لآكل، وقشّاً لأمضغ، يجد جذوراً حلوةً، ودرنًات، يحفر عليها بأظافره ويستخرجها، وينظفها بإبهامه لتكون جاهزة لي، أعلكُها، أو أبتلعها حين أستطيع، مبيِّناً، بأسنانه القوية، كيف تُقشر وتُسحَق لُبّاً، وتُنبَذُ خيوط أليافها. يجد نوعاً من الخبّازى في قرنه قطرة عسل، يميل برأسه إلى وراء، ويدبّب لسانه، ويُريني كيف يأخذ القطرة الوحيدة اللزجة، ويضحكَ إذ أحاول أن أفعل مثله. عيناه في كل مكان، تبحثان، ونحن نسير، عن كل شيء يمكن أن نأكله فيقيتنا.

الأيام تمرّ، وأنقطعُ عن عدّها. النهر خلفنا، بعيدٌ.

بين وقت وآخر، وبعيداً عن إحدى قمم التلال، نرى فرساناً، ونرقب العشب ينفرج ويُظلم، حين ينحدرون أسفل التل – إلى أين؟ نحو ماذا؟ نحن لا نعرف أبداً كما لن نجد أحداً منهم أقرب.

حدث مرةً أو مرتين، في الليل، أن أستيقظ، لأجد الطفل جالساً منتصباً بجانبي، وهو ينصت. أنا لا أسمع شيئاً، لكني أعرف ما هو. إنها الذئاب، قريبة. عندما يقترب أحدها، ينهض بخفّة، ويقف، مرتفع القامة، في الظلام، ويصدر من حلقه زمجراتٍ

صغيرة، فأرى عيني الذئب تومضان خضراوين قبل أن يقفز مبتعداً.

لم أعد أسأل نفسي إلى أين نحن ذاهبان. وفكرة الوجهة لم تعد ضرورية لي، كما يبدو. لقد ابتلعها اتساعُ هذا المشهد، مثل ما ابتُلعت الأيام بإحساسي الآن بحياة تمتدّ أبعدَ من حدود الزمن المقيس. أهذا ما يفعله الشامان حينَ يغيب عن الدائرة التي خطّها بيديه، والتي يجلس فيها جسمه؟ – هذه المغامرة في فضاء ليست له أبعادٌ طبيعيةٌ، وفي زمن قد يكون بالحسابات البشرية، بضعَ دقائق فقط، لكنه الأبدية أيضاً. أهذه هي الأرض التي عبرتْها روحُه في طريقها إلى القطب؟ وهل ذلك هو ما يوجد في الطرف البعيد من هذا السهل المعشب؟

القطب؟ أترانا ذاهبين إلى هناك، الطفل وأنا؟ كم سنستغرقُ للوصول إلى هناك؟ وفي غشية من أقوم بهذه الرحلة؟ ومن هو رفيقي؟

أسألُ نفسي، وأنا أراقبه يتحرك في النور على مبعدة أقدام قليلة مني، عارياً، شأنه في كل هذه الأيام الأخيرة، ماثلاً في سكون، نصف ناهض على قدم واحدة، وجسمه كله متيقظٌ لكل ما في العشب وراءهً – من هو هذا الطفل الذي يقودني، أعمق، في الأرض، أعمق، في الأرض، أبعدَ من آخر مخفر أماميّ مأهول في العالم المعروف، أبعدَ حتى من الكلام، في المَغاشب المتنهدة التي هي صمتٌ؟ من أين جاء؟ خارج أي حياة؟ خارج أي زمن؟ هل اكتشفتهُ حقاً، هناك، في غابات الصنوبر، أم هو الذي اكتشفني، أو أعادَ اكتشافي، بسبب غربتي عن عالم البشر؟ أهو طفلُ أيامي

الأولى تحت زيتونـات «سالمو»؟ أهـو الطفلُ نفســه؟ أثمت واحـدٌ فقط؟ وإلى أيـن يقودني، ما دمت أعـرف، أخيراً، أنه هو الـدليل؟ وهو الذي يُدخلني في أسرار عالمٍ لم أفهمه، للحظة، قَطُّ.

أن نطوّفَ معاً، متـوغلينَ في الأعشاب العالية جنبـاً إلى جنب، نوعٌ من المحَـادثة التـي لا تحَتاج إلى لسان، تبـادُل مدر كـات ممتاز، أمزجة، أسئلة، أجوبة، وهذا البسيط كالجوّ، هو في الحقيقة مجرّدُ انتقالٍ ظلال غَيم عبرَ ارض، أو عبر سطـح بحيرة. فالأفكار وهـي تخرجَ ذائبةً من ذهـن لتدخُل في آخر، هـي غيـمٌ وظلٌ، وليست لها بنى الكـلام الشكلي. مثل جـانبٍ من الـرأس يوصـلُ الأفكار إلى الجانب الآخر، العـارف بتوهجٍ مسبَق، قبل أن تصـل الأفكارُ، ما سيكون، فقد كان استقبَلَ ظلّ إضَاءتها.

أنا أغـدو بلا جسم. أنـا منْظر. أُحسُّني أتمايـل وأتموّج. أحسُّني أتّسعُ علواً، نحو قبة السماء الزرقاء. إلى هناك نحن سائرونَ؟

تبـدو الأرض، الآن وأنا أوشـكُ أن أفـارقهـا، جد قـريبـة أخيراً. أستيقظُ فـأرى جذور العشب هائلـة الحجم، بالنظر لقـربها من حـدقتيّ، حتـى لكأني أنظـر من خـلال جذوع أشجـار في غابـة مجهولة. وبين الجذور، عشرات الآلاف من ذرّات الترابٍ المكوّرة، تمسكها، وتُغذيها، دقيقةً جداً، مرئيةً جداً، فأدركتُ فجأةً العملية التي يتـمّ بها تدفقُ الطاقـة، إلى أعلى، من خلال السيقان الـذهب. إنها شبه شفافـة هذه النبتات اللطيفة الطويلـة، وبإمكان المرء أن يحدّق في داخلها ويرى النسغ يَصّاعَدُ في فقاعات. إنها أعمدة نور،

قنوات منتصبة تغتذي بها الأرضُ السماء. وفي قمتها، البعيدة، حتى لتبدو ممتنعة عن البلوغ، رؤوس العشب الشبيهة بالريش، تكتنز وتومىء في النسيم، ويصعد إلى بذورها الحلوة، كلُّ غنى الأرض.

حول قاعدة هذه الجذور، لائذةً كما في غابة، وباحثةً عن طعامها، المخلوقاتُ الصغرى: الأَرَضة، النمل، أبو مقصّ. الخرطون، الخنافس، عالمٌ ثان، ونظامٌ للوجود مختلفٌ، مزدحمٌ ومنشغلٌ في المسار اللانهائي لَلخليقة والبقاء والموت. وها نحن أولاً جئنا لننضمّ إليهم. دفء الأرض تحتي، وأنا متمدد ليلاً في العراء، مدهشٌ، كأنه دفء جسم آخرَ امتصّ الشمس طوال النهار، والآن يمنحُ ثانيةً، ما اختزنه من حرارة. عندما آخذ حفنةً من هذا التراب، وأشمُّ روائحها الرائعة، أعرف فجأةً ما أنا مكوّنٌ منه، كأن هذه القبضة من التراب الأسود فتحتْ بغتةً، بين جسمي وبينها، كما بينها وبين سيقان العشب، ممراً تجري فيه كينونتنا المشتركة. لم أعد أخاف التراب، أتمدد لأنام، وأتساءل، إن كنتُ في طلاقة النوم، سوف أشرّش جذوراً على طول جسمي، وما أن أدخل في الحلم الأول، حتىَ أشعر بأن هذا قد بدأ، وبأن مسامّاتي المنفردة، تنفتح لذرّات التراب المنفردة. وعندما أفيقُ أكون مرتاحاً تماماً للعملية.

سأسكن عميقاً في التراب، أعمق مما أفعل في النوم، ولن أضيع. نحن مستمرون مع التراب في كل جزيئات كينونتنا الطبيعية، مثل ما أننا مستمرون مع السماء في تنفسنا. بين أجسامنا وبين العالم وحدة وتبادلٌ.

ربما لهذا السبب، يبدو تفتّحُ الأرض حولنـــا، في جدة الربيع، هذه المرة، كأنه يجري في طرف أعصابي نفســه. تَفتّحُ النوّارة الهرّية الصغيرة التــي نراهــا أحيــانــاً على الشجيرات، لزوجــةُ الأوراَق الجديدة التي تبدأ مثل مستدقة لامعة، ثم تنفتح من تلقاء نفسـها، فجأةً، مثل قلوب صغيرة مسننّة. كل هذا، وفي هذا المدى اللصيق، يبدو معجزاً، وكذَلك انفجار الأجنحة الكثيرة في الهواء.

غشاءٌ يتــوتر ويتــوتر، يغـدو شفافــاً، حتى يتبـدى مرئيــاً، بكل أجزائه، المخلوقُ الذي كان في الداخل يتحرك ويُفيق، مرغماً غلافَه كي يكون على وشك الانفتاح، إلى أن يحلّ الـوقت الذي يصير فيه جناحاه المطويّان آمنينِ في معــرفة الطيران، وفي كل تقلبات الهواء، وحينذاك يخفق حرّاً بَجناحيــه. الأرضُ بأسرها، تَصرُّ وتتوتر في الظلام. الأصــواتُ هيّنة، لكن الآذان الملتصقة بـالأرَض تسمعها تماماً. أفكـرُ أحياناً، أنَنــي لو أنصــتُ جيداً لسمعتُ جسمــي كله يتفتح بــالطريقة ذاتها، مُزيحاً الغــلاف الرقيق الشفّــاف الذي لا يزال يحتــويه، ويمنعــه من أن ينفجــر في هيأة جـديدة، أحسّــتْ بنفسـها، منذ الآن، باعتبارها كـائناً، شيئاً مختلَفاً عماّ نَعرف، كما الفراشة من الخادرة. الطفلُ أيضاً، يبــدو لي كمن اكتسب كينونةً جديدة هنا، ولم أعد أسـأل نفسي عن أذى يمكن أني سبّبتُه له. هو، كذلــك، نجا، من الفصل الــذي أمضاه بين البشر. وإن فيه لطــاقةً جديدة. فهو أخفُّ، ويتحــرك أسرع على الأرض. منتبهٌ لكل حركة في الريح، وكـل حالة في السماء فهي تنبئنا بالجو، غـداً، وبعد غدٍ، منتبهٌ إلى كـل رائحةٍ مــن مئات الحشــائش والأعشاب والبراعــم المكتنزة الصغيرة. التــي تنشر حولنا جـزيئاتها غير المرئيــة. هذه الحشائش وطفيلياتها، الديدان، اليرقــات، الجنادب المجنحة، هــي

التـي تزوّدنـا الغذاء. الطفـل يجمعهـا حيثما تعلّقتْ. إنها تغـذو حلقاتها عَلى الأرض. مخلوقٌ يرعى، يأخذ النعمةَ، يوصلها إلى فم مخلوق آخر. نحن في آخر السلسلة. بُكرةَ كل يوم، يصطاد الطفلُ، مُطعماً إياي الآن من عالمه، كما أطعمتُه يوماً من عًالمنا.

أرقبه، واقفاً في الغسق، في طرف أي مكـان كنا وجدناه لنستريح، الليلَ، محدِّقاً نحو الشمال في الاتساع الهائل للعشب.

أيعـرف ما هنـاك؟ أهو يعـود إلى مكـان معروف، ويقـودني إلى هنـاك؟ الآن، أغـدو، كل يـوم، أقلّ فـأقلّ قـدرةً على المضيّ إلى أي هدف - لم يُعلن بعـدُ، وسط أميال العشب- نحـن متجهون إليه. أيعرف إلى أين يأخذنا؟ أشعرُ بتلهفه إلى التحرك أماماً، حتى وهو واقفٌ في الغسق، ساكنٌ تماماً إزاء حمرة السماء، موجّهاً عينه إلى أمام، حيث سنكون، عند قمة ذلك المرتفع الأبعد، في هذاَ الوقت من ليل الغد. أراقبه وأتساءلُ، تُـرى، أي شيء في ذهنه يجعل لرحلتنا هدفاً. إن جسمه بـأكمله يَنْشَدُّ نحو مسافةٍ لا أستطيع أن ألتقطها من مكاني وأنا متمدد في الظل.

إنه مليٌّ بها، بتلهف مقموع إلى المَديات الأبعد لما يمكن أن يراه. وأنا أشعر بذلك، متقداً فيه، وهو ينحنـي كي يأتيني بما وجده لنا من طعـام، فـارزاً البذور، بـأنـاة، لي، أو مـوضحاً لي كيـف أتنـاول حلازين الماء، أو معتصراً قطرأت ماء من خـرقة ليبلل شفتيّ. إنه أقربُ الآن مما ظننتـه ممكناً. في تلكَ الأيام الأولَى، لم يكـن ممكناً إدراكُ أنه سيكتشف في نفسه هذه القربى الرؤوم مع البشر، التي تتبدّى الآن في كل لحظةٍ من اهتمامه بي.

ومع هذا، وبالرغم من كل هـذا القرب، يبدو منتسباً، أكثر فأكثر، إلى عالمٍ يقع بعيداً عني تماماً، وبعيداً عن خيالي البشريّ.

لكأنه دخـل، في آن واحد، عالمين منفصلين، أراقبه يـركع في إحدى مهماته المتواضعـة، يطعمني، أو ينظفني من وَضَرَ شيخـوختي، وفي الوقت نفسه، حين أُصعّدُ نظـري، أراه واقفاً على مبعدة قدم، مثـل ما رأيتـه أول مـرة، في غابـة الصنـوبـر، شخصاً نحيـلاً، متوهجاً، عارياً في الغسقّ، مبتعداً عني في ذهنه، مُنْشَدّاً إلى الأمام، إلى أي حياة، مهما كانـت، حياة تقع وراء لحظتنا المشتركـة، حياة لم آخذْها بـالحسبان، ولسوفَ يكون حـرّاً في دخولها، فقط حينَ تنتهي رحلتنا المشتركة. أردتُ أن أستنقذ مـن الحيوان الذي فيه، فكـرةً عما يعنـي أن يكـون أحدٌ بشراً. وأنـا أتسـاءل إن كـان لم يشرع، منذ الآن، يكتشف في نفسه، مخلوقاً آخر. أهو، في الحقيقة، كما ظنه القرويون (رأيهم كان على الدوام أبسط من رأيي، ولهذا، فهو أقرب إلى الصـواب) من نسل الآلهة؟ أهي طبيعتـه الخاصة، بـاعتباره إلهاً، جعلـت جسمه يتـوتّر إلى أمـام، في هذا الحدّ مـن حياتـه، حيث أي طفـل طبيعيّ، قـد يكون مـوشكاً على الرجولة، وعلى الدخول في امتثالاته، باعتباره رجلاً؟

إنه ينتقل خارج الـرؤية، مُطوّفاً هناك، غامضـاً ومتوهجاً، تماماً وراء قدرة عينـي على تمييز مـا ترى. وفي الـوقت نفسـه، يجلس منحنـي الظهـر، مقتعـداً الأرضَ، ويـداه الخشـنتان ذواتـا الأظـافـر المشققـة المتكسـرة، تجدّان، لتهيئا لي، الطعام الذي لا أكاد أبتلعه الآن. إنـه يشقى كثيراً، وهوَ يمضغ لي نصـفَ مضغ، الدرنـاتِ الليفيـةَ كي يجعلهـا سائغةً، ويطعمني اللـُّباب، مثل مّا

رأى الحيوان يفعل لصغاره.

وهكذا، وصلنا. وصلنا إلى المكـان، لقد خطوتُ خطواتي الأخيرة، بالرغـم من أنه لا يعرف هـذا، حتى الآن، إذ ابتعد، كالمعتـاد، كي يأتي بعلف وجبتنا المسائية. من هنا أصعدُ، أو أخفضُ نفسي، حبةً إثر حبة، بين أيدي الآلهة. إنه المكان الـذي حلمت به طويلاً، هناك في «تومِّيس»، إلا أني لم أستطـع أن أجد في كل جولات أحـلامي، تلك النقطة على وجه الأرض، حيث أختفي.

لم يكـن الأمر كما تخيلـتُ. ليـس ثمـت ذئاب. إنه لَنـورُ شمـس صاف، في نهاية يـوم مثل الأيام الأخرى التي أمضينـاها هنا، فيً العـراء، يوم ربيعـيّ دافئ لطيـف. القبرات في الهواء، والحشرات تصخب تحتَ أقدامنا. الطفل هنـا. أراقبه يمضي مبتعداً على حافة الجدول، ينحنـي، يركـع، ينطلـق ثانيـةً في السرعـة التي منحهـا الربيعُ، وهو يجمع الحلازين من بين الطحالب والأعشاب.

غـريبٌ أن أعـودَ، فـأنظر إلى الأراضي الشـاسعة التـي جـاهدنـا لنقطعها كلّ تلـك الأسابيع، عبر البحر، عبر حيـاتي في روما، عبر طفولتـي، لألحظ كيف أن آثـار الأقدام تـؤدي بوضـوح إلى هذا المكان، وليـس إلى سواه، إنها تشعّ في رأسي، هذه الخطـواتُ كلها، وأستطيع في ذهني أن أتتبعها، عائداً، أحـسّ بنفسي مع كل خطوة مستردّة، أصغُرُ، حتى أصل إلى ذكـرياتي المبكرة، وإذا بي أجلس في النورِ المتفاوت لأشجار الزيتون عند حافة مزرعتنا، وثمت راعٍ للماعز ينعس مستنـداً إلى إحدى الزيتونات، رأسـه الخشن مائلٌ إلى الخلف، وحلقه مكشوفٌ، كأنه كان ينام هكذا، مثل ما أتذكره،

منـذ ستين عامـاً تقريبـاً. معزى كـانت منتصبـة على قائمتيهـا الخلفيتين لتأكل أوراق العنب الطرية. إنه الربيع. إنه الصيف. أنا في الثالثة من عمري. أنا في الستين.

الطفل هناك.

يلتفت لحظةً، ناظـراً إليّ، عبر كتفيه اللتين يلمسهما نور الشمس، ثم ينحني ليلتقط حلزوناً آخر من حافة الجدول. ينهض ويمضي. الجدول ينفض نـوره حول كعبيه، وهو يخوّض أعمـق، ثم يعتلي صخرة ملســاء ويتوازن لحظةً في الشمس، يَثـبُ، يثبُ ثانيـةً، ثم يتحـول صـاعـداً مع الجدول على الضفـة الأخـرى، التــي هــي حصباء، كلُ حصاة فيها بيضـاء، سوداء، رمادية، منتقاة، ولامعة في ضوء الشمس الأَخير، كأنها في موزاييك، حيث يتوقف، ويلتقط حلـزوناً، اثنين، ثـلاثـة، ومع الجدول المترقـرق، يقفـز خارجـاً، داخلاً، ويسير، راكلاً الحصــا، منغمساً لحظةً في بهجته الطفولية لكونه حراً.

بإمكاني أن أناديـه. أنا أملك صوتاً لذلك. لكنــي لا أفعل. بمناداته قد يفـوتني امتـلاء هذه اللحظـة وهي تـوشك أن تتكشـف، وأنا أرغـــب كثيراً، مع نهايتي هنا، في أن أكون منفتحاً على كل ما يظل أميناً لي.

الامتلاءُ هو في اتجاه الطفل بعيداً عنــي، هو في خطوه هذا الخفيف البهيج، عـارياً، داخل مسافتـه الخاصة أخيراً، وهو يبهـت داخل وخارج الضوء البـاهر المنبعث من الماء، وينحنــي ليلتقط – ماذا؟ حصباء؟ أتلك التي انجذبت إليهـا عيناه؟ الحصاة الأكثر رماديةً،

والأجمل خطوطاً؟ أم انه نسيَ كل غـرض، يتحرك لبهجة الحركة فقط، مخوّضاً أعمـق في النور، وتاركاً الحَلازيـن الحية الصالحة للأكـل تتسَاقط مـن بين يديـه، الحلازينَ التي لم تَعُـدْ ضرورية لحياتي، وبالإمكان تركها الآن لتعود إلى حياتها، والحصباء التي حيثما مسـّت الأرض ارتدّت فجأـةً كالفـراشات، التـي تشكـل أجنحتُها البراقةُ قوسَ قزحٍ في الجدول.

هو يمشي على نـور الماء. وبينما أنا أرقبـه، يخطو خطـواته الأولى مبتعـداً، ويسير ببـطء، وبعيـداً الآن، في المسافـة الأعمـق، فـوق الأرض، فوق الماء، فوقَ الهواء.

إنه الصيف.
إنه الربيع.
وأنا سعيدٌ إلى حدّ لا يقاس.
إلى حدّ لا يحُتَمل.
أنا في الثالثة من عمري.
أنا في الستين.
أنا في السادسة.
أنا هناك.

انتهت الرواية

مؤخّرة: ملحوظة حول المصادر

نعرف القليل القليل عن حياة أوفيد، وقد جعله غياب الوقائع هذا، نافعاً باعتباره الشخصية المركزية لحكايتي، وسمح لي بحرية الابتداع الطليق، فما أردتُ أن أكتبه ليس روايةً تاريخية ولا سيرة، بل قصةً تمد جذورها في الحدث الممكن.

الأمور التي نعرفها، مصدرُها الشاعر نفسه: مكان وتاريخ ميلاده، موت أخيه الذي يكبره بعام واحد في ميعة الصبا، والمنفى الشهير طبعاً - مع أننا لا نملك تفسيراً لسَببه. أوفيد ممثلٌ إلى حد كبير، ميالٌ إلى المبالغة، بُغية التأثير، لهذا فإن ما يخبرنا به لا يمكنً اعتماده كثيراً. استخدمت قصيدته عن المنفى، «تريتيا» في وصفي «توميس» واعتمدت على الكتاب الثالث من «فاستي»، ودراسته عن الأعياد الرومانية الرئيسية، في تفاصيل عيد «باريليا». أما إشارتني إلى القبور السيثية فهي من هيرودتس.

أما اللقاء مع الطفل، الذي يشكل القسمَ الأكبر من هذا الكتاب، فليس له أساسٌ في الواقع، لكنني تثبّتُ من وصفي اعتماداً على أفضل حصيلة لظاهرة كهذه، ملحوظات ج.م.ج إيتارد، الدقيقة، عن فيكتور، صبيّ آفيرون المتوحش، الَتي لا يمكن لأي كاتبٍ اهمالهُا.

إن استغراق إيتارد هو استغراق المعلم، المتأتي من القرن الثامن عشر، والمعنيّ أكثر بمشكلات الخبرة الفطرية والمكتسبة. وجزئياً، من أجل الانطلاق في ميدان ذي إمكانات مفتوحة أكثر، جعلتُ حكايتي تدور في مكانٍ ناءٍ يكَاد لا يعرف أحدٌ شيئاً عنه،

وفي زمــان هو فجــر المسيحية، حين كــان الشعــور بفعل القــوى الغــامضةً قــائماً، وحين كان التفكير لم يستقــرّ، بعدُ، على صيغة عقلانية.

وفي وقت غـرقت فيه الفترة الـرومانية، قـرابة ألف عــام، في قتام كثيف، صَــار أوفيد شخصيةً شعبيةً في الميثــولوجيا، وكــان منً نتائج البحث عن قبره تقديسُ مواقعَ أسطورية لكنها زائفة، يمتد بعضها بعيداً عن مكان منفــاه الأصلي، حتى ليًبلغ أواسط المجر. إن التاريخ الفعلي لموته، وسبب هذا الموت، يظلان غامضينً.

كــان أوفيـد، لقــارىء عصر النهضة، أحـدث الشعـراء الـلاتين، وأكثرهم مألوفيةً وقرباً، وإنسانيةً. كان نزوعه إلى الشك، موازناً بحبّ الخرافيّ والمتجاوز. هذه الميزة الحديثة، حاولتُ إعادةَ خلقها، مع أنَّ المصير الذي حمّلتـه إياه وراء حقيقة إبعاده إلى «تـوميس» من الأمور التي كــانت ستدهش الشاعر الحقيقــي، إذ نسبتُ إليه قدرةً على الإيمان لا يمكـن أن نجدهــا في كتاباتـه. لكن هــذه هي النقطة الأســاسية بالضبط. كــان غرضي أن أجعل شاعــر «مَسْخِ الكائنات» الذرب،يعيش، فعلاً، ما كان، في وجوده السابق، مجرد مناسبةٍ للتباهَي الأدبي المتألق.

رسالتان بين المترجم والمؤلف

١٥ / ١٠ / ١٩٩٥

سيدي

آنَ كنت في سيدني، قبل حوالي خمسة أشهر، سألت عنك، وحاولتُ، عبثاً، الاتصال بك، لكنك كنت في إيطاليا، كما قيل لي.

لقد قرأت روايتك الممتازة " حياة متخيلة "، وروايتيك القصيرتين: " لعبة الطفل " وخبز الآتي " إلا أني وجدت خصوصيةً ما في " حياة متخيلة "، ربما لأنني شاعرٌ منفيٌ منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.

لقد ترجمتُها، فعلاً إلى اللغة العربية.

وما كان الأمر هيِّناً!

والآن، أفكرُ بنشرها، لكن ذلك مرهونٌ بموافقتك.

لقد وضعت للرواية عنواناً ثانوياً، هو "أوفيد في المنفى"، بسبب الطبيعة الثقافية للقاريء العربي.

أرجو أن أعرف جوابك المعتبر.

المخلص

سعدي يوسف

٢٥ / ١٠ / ١٩٩٥

عزيزي سعدي يوسف

أشكرك للفاكس الذي يحمل نبأ اعتزامك نشر نسخة عربية من " حياة متخيلة ".

لقد تأثرت بإخلاصك للكتاب، وصرفك وقتاً كثيراً، وطاقةً كبيرةً، لتقديمه في لغة أخرى.

سأكون سعيداً بتحقيق المشروع، متمنياً لك حظاً سعيداً معه. أما عن الحق الرسمي في النشر، فعليك الاتصال بوكيلتي ديبورا روجرز من كولجريدج وهوايت، لندن، وإخبارها بتفاصيل النشر وعدد النسخ المطبوعة، الخ...

وأنا متأكدٌ أنك ستجد من لَدُنها عوناً.

مع كل تمنياتي

ديفيد معلوف

هـذا الكتاب الأكثـر تحضراً، والمدوّن ببســاطـة وبهاء، هو مـن كلاسيكيات عصرنا، وسيظل على الدوام عملاً كلاسيكياً.

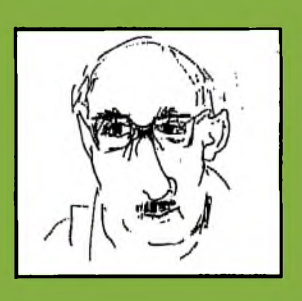
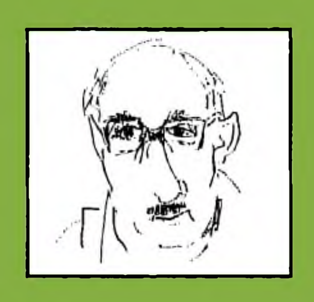
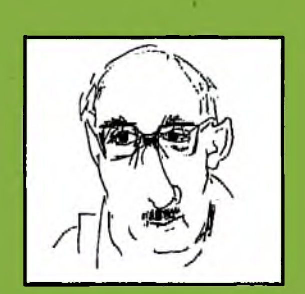
هيلين فريزل، " مجلة الكتاب الأسترالي "

لقـد أبـدع الشيء النادر، روايـة تطلـب مـن القاريء، مـا تطلبـه القصيدة منه، اقتراباً وانتباهاً مفعماً بالخيال.

" أخبار الكتاب البريطاني "

لقد جاء ديفيد معلوف بعمل ذي ذكاء وخيال غير اعتياديين.

كاثا بوليت، " نيويورك تايمز "

ديفيد معلـوف : شاعر وروائي أستراليّ. حصـل ديفيد معلوف على جـوائز أدبية عـدّة بينهـا جـائزة باسكـال في العـام ١٩٨٨، وجائزة الكومـونويلث للقصـة في العام ١٩٩١، وجـائزة فمينا إترانجيه الفرنسية لأفضل رواية أجنبية.

يطلب هذا الكتاب من دار المدى

تلفاكس ٦٩٥١٥٠ (٦-٩٦٢)،ص.ب ١٨٣٧٦٤ عمان - الأردن